(٨٢) سورة الانفطار مكية وآياتها تسع عشرة

● **سورة** الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها سورة التكوير - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار يوم البعث والنشور .

● **ابتدأت** السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث في الكون ، من انفطار السماء ، وانتشار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿إذا السماءُ انْفَطَرتْ . وإذَا الكواكِبُ انْتَثَرتْ . وإذا البِحَارُ فُجِّرتْ . وإذا القبورُ بُعْثِرتْ . علمتْ نفسٌ ما قَدَّمت وأخرت﴾ .

● **ثم تحدثت** عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسوَّاك فعدلك . في أي صورةٍ ما شاء ركبك﴾ .

● **ثم بينت** السورة علة هذا الجحود والإنكار ، وهو التكذيب بيوم الحساب ، مع أن الله تعالى وكَّل بكل إنسان ملائكةً يسجلون عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله ﴿كلاَّ بل تكذبون بالدين . وإن عليكم

لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون﴾

● **وذكرت** السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبينت مآل كلٍّ من الفريقين ﴿إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة ، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأمر يومئذٍ لله﴾ .

سورة انفطرت

[١٠٠٦] أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾[1] الآية. قال نزلت في أبي بن خلف.

* * *

[١٠٠٦] (١) سورة الإنفطار: الآية (٦).

سورة الانفطار

تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾

اعلم أن المراد أنه إذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة، فهناك يحصل الحشر والنشر، وفي تفسير هذه الآيات مقامات: **الأول:** في تفسير كل واحد من هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة وهي ههنا أربعة، اثنان منها تتعلق بالعلويات، واثنان آخران تتعلق بالسفليات: **الأول:** قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي انشقت، وهو كقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩] و﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨] قال الخليل: ولم يأت هذا على الفعل، بل هو كقولهم: مرضع وحائض، ولو كان على الفعل لكان منفطرة، كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أما الثاني: وهو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ فالمعنى ظاهر لأن عند انتقاض تركيب السماء لا بد من انتثار الكواكب على الأرض.

واعلم أنا ذكرنا في بعض السورة المتقدمة أن الفلاسفة ينكرون إمكان الخرق والالتئام على الأفلاك، ودليلنا على إمكان ذلك أن الأجسام متماثلة في كونها أجسامًا، فوجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر، إنما قلنا: (إنها متماثلة) لأنه يصح تقسيمها إلى السماوية والأرضية، ومورد التقسيم مشترك بين القسمين، فالعلويات والسفليات مشتركة في أنها أجسام، وإنما قلنا: (إنه متى كان كذلك وجب أن يصح على العلويات ما يصح على السفليات) لأن المتماثلات حكمها واحد، فمتى يصح حكم على واحد منها وجب أن يصح على الباقي.

وأما الاثنان السفليان: **فاحدهما:** قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ وفيه وجوه: **أحدهما:** أنه ينفذ بعض البحار في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخًا، وحينئذٍ يصير الكل بحرًا واحدًا، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الأرض وتصدعها. **وثانيها:** أن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها. **وثالثها:** قال الحسن: فجرت أي يبست.

واعلم أن على الوجوه الثلاثة، فالمراد أنه تتغير البحار عن صورتها الأصلية وصفتها، وهو كما ذكر أنه تغير الأرض عن صفتها في قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ابراهيم: ٤٨] وتغير

الجبال عن صفتها في قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦] ورابعها: قرأ بعضهم: (فُجِرَتْ) بالتخفيف، وقرأ مجاهد: (فَجَرتْ) على البناء للفاعل والتخفيف، بمعنى بغت لزوال البرزخ نظرًا إلى قوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] لأن البغي والفجور أخوان.

وأما الثاني: فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فاعلم أن بعثر وبحثر بمعنى واحد، ومركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما، والمعنى أثيرت وقُلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها، ثم ههنا وجهان: أحدهما: أن القبور تُبعثر بأن يخرج ما فيها من الموتى أحياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] والثاني: أنها تُبعثر لإخراج ما في بطنها من الذهب والفضة، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تُخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها، ثم يكون بعد ذلك خروج الموتى، والأول أقرب لأن دلالة القبور على الأول أتم.

المقام الثاني: في فائدة هذا الترتيب: واعلم أن المراد من هذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا، وانقطاع التكاليف، والسماء كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار، فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ثم إنه تعالى بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض، وهو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ثم إنه تعالى يخرب آخر الأمر الأرض التي هي البناء، وذلك هو قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فإنه إشارة إلى قلب الأرض ظهرًا لبطن، وبطنًا لظهر.

المقام الثالث: في تفسير قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وفيه احتمالان: الأول: أن المراد بهذه الأمور ذكر يوم القيامة، ثم فيه وجوه: أحدها: وهو الأصح أن المقصود منه الزجر عن المعصية والترغيب في الطاعة، أي يعلم كل أحد في هذا اليوم ما قدم، فلم يقصر فيه وما أخر فقصر فيه؛ لأن قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ يقتضي فعلاً وما (أَخَّرت) يقتضي تركًا، فهذا الكلام يقتضي فعلاً وتركًا وتقصيرًا وتوفيرًا، فإن كان قدم الكبائر وأخر العمل الصالح فمأواه النار، وإن كان قدم العمل الصالح وأخر الكبائر فمأواه الجنة. وثانيها: ما قدمت من عمل أدخله في الوجود وماأخرت من سنة يستن بها من بعده من خير أو شر. وثالثها: قال الضحاك: ما قدمت من الفرائض وما أخرت أي ما ضيعت. ورابعها: قال أبو مسلم: ما قدمت من الأعمال في أول عمرها وما أخرت في آخر عمرها، فإن قيل: وفي أي موقف من مواقف القيامة يحصل هذا العلم؟ قلنا: أما العلم الإجمالي فيحصل في أول زمان الحشر؛ لأن المطيع يرى آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر. وأما العلم التفصيلي، فإنما يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد قبل قيام القيامة بل عند ظهور أشراط الساعة وانقطاع التكاليف، وحين لا ينفع العمل بعد ذلك، كما قال: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ

كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فيكون ما عمله الإنسان إلى تلك الغاية هو أول أعماله وآخرها؛ لأنه لا عمل له بعد ذلك. وهذا القول ذكره القفال.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر، ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين: الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟ الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثًا، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة فتلك الحكمة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد، والأول باطل لأنه سبحانه متعالٍ عن الاستكمال والانتفاع، فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا، والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل - يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] إلى أن قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧] وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضًا مع من ينفي الابتداء والإعادة معًا؛ لأن الخَلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر.

فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨] فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك بربك الحكيم؟ الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيمًا؛ لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنيًّا على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيرًا لا كرمًا، أما إذا كان مبنيًّا على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرمًا، إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريمًا يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيمًا فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أَوْلى من ذكر الحكيم. هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم، ولنرجع إلى التفسير: أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه الكافر؛ لقوله من بعد ذلك: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩] وقال عطاء عن ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في ابن الأسد بن كلدة بن أسيد، وذلك أنه ضرب النبي ﷺ فلم يعاقبه الله تعالى، وأنزل هذه الآية.

والقول الثاني: أنه يتناول جميع العصاة. وهو الأقرب؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ.

أما قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ فالمراد ما الذي خدعك وسول لك الباطل حتى تركت الواجبات وأتيت بالمحرمات؟ والمعنى ما الذي أمنك من عقابه؟ يقال: غره بفلان، إذا أمنه المحذور من جهته مع أنه غير مأمون، وهو كقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] هذا إذا حملنا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على جميع العصاة، وأما إذا حملناه على الكافر، فالمعنى ما الذي دعاك إلى الكفر والجحد بالرسل، وإنكار الحشر والنشر: **وههنا سؤالات:**

الأول: أن كونه كريمًا يقتضي أن يغتر الإنسان بكرمه بدليل المعقول والمنقول: أما المعقول فهو أن الجود إفادة ما ينبغي لا لعوض، فلما كان الحق تعالى جوادًا مطلقًا لم يكن مستعيضًا، ومتى كان كذلك استوى عنده طاعة المطيعين وعصيان المذنبين، وهذا يوجب الاغترار لأنه من البعيد أن يقدم الغني على إيلام الضعيف من غير فائدة أصلاً. وأما المنقول فما روي عن علي عليه السلام أنه دعا غلامه مرات فلم يجبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: لِمَ لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه[1]، وقالوا أيضًا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، ولما ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به، فكيف جعله ههنا مانعًا من الاغترار به؟ **والجواب من وجوه: أحدها:** أن معنى الآية أنك لما كنت ترى حلم الله على خلقه ظننت أن ذلك لأنه لا حساب ولا دار إلا هذه الدار، فما الذي دعاك إلى هذا الاغترار، وجرأك على إنكار الحشر والنشر؟ فإن ربك كريم، فهو لكرمه لا يعاجل بالعقوبة بسطًا في مدة التوبة، وتأخيرًا للجزاء إلى أن يجمع الناس في الدار التي جعلها لهم للجزاء، فالحاصل أن ترك المعاجلة بالعقوبة لأجل الكرم، وذلك لا يقتضي الاغترار بأنه لا دار بعد هذه الدار. **وثانيها:** أن كرمه لما بلغ إلى حيث لا يمنع من العاصي موائد لطفه، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان أَوْلى، فإذن كونه كريمًا يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار، وترك الجراءة والاغترار. **وثالثها:** أن كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة والاستحياء من الاغترار والتواني. **ورابعها:** قال بعض الناس: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ليكون ذلك جوابًا عن ذلك السؤال حتى يقول: غرني كرمك، ولولا كرمك لما فعلت لأنك رأيت فسترت، وقدرت فأمهلت. وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ليس الكافر.

السؤال الثاني: ما الذي ذكره المفسرون في سبب هذا الاغترار؟ **قلنا: وجوه: أحدها:** قال قتادة: سبب غرور ابن آدم تسويل الشيطان له. **وثانيها:** قال الحسن: غره حمقه وجهله. **وثالثها:** قال مقاتل: غره عفو الله عنه حين لم يعاقبه في أول أمره. وقيل: للفضيل بن عياض إذا أقامك الله

---

(١) أورده صاحب الكشاف (٧/ ٢٤٧) عن علي بن أبي طالب موقوفًا، ولم أجد له إسنادًا.

يوم القيامة وقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ ماذا تقول؟ قال: أقول: غرتني ستورك المرخاة.

السؤال الثالث: ما معنى قراءة سعيد بن جبير: (ما أغرك؟) قلنا: هو إما على التعجب وإما على الاستفهام، من قولك: (غر الرجل فهو غار) إذا غفل، ومن قولك: بيَّتهم العدو وهم غارون، وأغره غيره، جعله غارًا.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم ذكر هذه الأمور الثلاثة كالدلالة على تحقق ذلك الكرم: أولها: الخلق وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ ولا شك أنه كرم وجود لأن الوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، وهو الذي قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، **وثانيها:** قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي جعلك سويًا سالم الأعضاء تسمع وتبصر، ونظيره قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] قال ذو النون: سَوَّاك، أي سخَّر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخرًا لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، وسرك بالإيمان، وشَرَّفك بالأمر والنهي وفضَّلك على كثير ممن خلق تفضيلاً. **وثالثها:** قوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قال مقاتل: يريد عَدَّل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع، وهو كقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤] وتقريره ما عُرف في علم التشريح أنه سبحانه ركَّب جانبي هذه الجثة على التساوي حتى إنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم، وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائمًا معتدلاً حسن الصورة، لا كالبهيمة المنحنية. وقال أبو علي الفارسي: عَدَّل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعدًا لقبول العقل والقدرة والفكر، وصَيَّرك بسبب ذلك مستوليًا على جميع الحيوان والنبات، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم.

البحث الثاني: قرأ الكوفيون: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف، وفيه وجوه: **أحدها:** قال أبو علي الفارسي: أن يكون المعنى: عَدَل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت. **والثاني:** قال الفراء: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي فصرفك إلى أي صورة شاء. ثم قال: والتشديد أحسن الوجهين لأنك تقول: عدلتك إلى كذا، كما تقول صرفتك إلى كذا، ولا يحسن: عدلتك فيه ولا صرفتك فيه، ففي القراءة الأولى جعل في من قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ صلة للتركيب، وهو حسن، وفي القراءة الثانية جعله صلة لقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وهو ضعيف، واعلم أن اعتراض الفراء إنما يتوجه على هذا الوجه الثاني، فأما على الوجه الأول الذي ذكره أبو علي الفارسي فغير متوجه. **والثالث:** نقل القفال عن بعضهم أنهما لغتان بمعنى واحد.

أما قوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ **ففيه مباحث: الأول:** (ما) هل هي مزيدة أم لا؟ فيه قولان:

الأول: أنها ليست مزيدة، بل هي في معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى: في أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك. وبناء على هذا الوجه قال أبو صالح ومقاتل: المعنى إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة كلب أو صورة حمار أو خنزير أو قرد. **والقول الثاني:** أنها صلة مؤكدة والمعنى: في أي صورة تقتضيها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة، فإنه سبحانه يركبك على مثلها، وعلى هذا القول تحتمل الآية وجوهًا: **أحدها:** أن المراد من الصور المختلفة شبه الأب والأم، أو أقارب الأب أو أقارب الأم، ويكون المعنى أنه سبحانه يركبك على مثل صور هؤلاء. ويدل على صحة هذا ما روي أنه عليه السلام قال في هذه الآية: «إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ، أَحْضَرَهَا اللَّهُ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ»، **والثاني:** وهو الذي ذكره الفراء والزجاج أن المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة، ودلالة هذه الحالة على الصانع القادر في غاية الظهور؛ لأن النطفة جسم متشابه الأجزاء، وتأثير طبع الأبوين فيه على السوية، فالفاعل المؤثر بالطبيعة في القابل المتشابه لا يفعل إلا فعلاً واحدًا، فلما اختلفت الآثار والصفات دل ذلك الاختلاف على أن المدبر هو القادر المختار، قال القفال: اختلاف الخلق والألوان كاختلاف الأحوال في الغنى والفقر والصحة والسقم، فكما أنا نقطع أنه سبحانه إنما ميز البعض عن البعض في الغنى والفقر، وطول العمر وقصره، بحكمة بالغة لا يحيط بكنهها إلا هو، فكذلك نعلم أنه إنما جعل البعض مخالفًا للبعض في الخلق والألوان بحكمة بالغة، وذلك لأن بسبب هذا الاختلاف يتميز المحسن عن المسيء والقريب عن الأجنبي. ثم قال: ونحن نشهد شهادة لا شك فيها أنه سبحانه لم يفرق بين المناظر والهيئات إلا لما علم من صلاح عباده فيه وإن كنا جاهلين بعين الصلاح. **القول الثالث:** قال الواسطي: المراد صورة المطيعين والعصاة فليس من ركبه على صورة الولاية كمن ركبه على صورة العداوة. قال آخرون: إنه إشارة إلى صفاء الأرواح وظلمتها. وقال الحسن: منهم من صوره ليستخلصه لنفسه، ومنهم من صَوَّره ليشغله بغيره مثال الأول: أنه خلق آدم ليخصه بألطاف بره وإعلاء قدره وأظهر روحه من بين جماله وجلاله، وتوَّجه بتاج الكرامة وزينه برداء الجلال والهيبة.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن بالدلائل العقلية على صحة القول بالبعث والنشور على الجملة، فرع عليها شرح تفاصيل الأحوال المتعلقة بذلك، **وهو أنواع:**

النوع الأول: أنه سبحانه زجرهم عن ذلك الاغترار بقوله: ﴿كَلَّا﴾ و ﴿بَلْ﴾ حرف وُضع في اللغة لنفي شيء قد تقدم وتحقق غيره، فلا جرم ذكروا في تفسير ﴿كَلَّا﴾ وجوهًا: **الأول:** قال القاضي: معناه أنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي عليكم وإرشادي لكم، بل تكذبون بيوم الدين. **الثاني:**

كلا، أي ارتدِعوا عن الاغترار بكرم الله، ثم كأنه قال: وإنكم لا ترتدعون عن ذلك بل تكذبون بالدين أصلاً. الثالث: قال القفال: كلا، أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث ولا نشور؛ لأن ذلك يوجب أن الله تعالى خلق الخلق عبثًا وسدى، وحاشاه من ذلك، ثم كأنه قال: وإنكم لا تنتفعون بهذا البيان بل تكذبون.

وفي قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ وجهان: الأول: أن يكون المراد من الدين الإسلام، والمعنى أنكم تكذبون بالجزاء على الدين والإسلام. الثاني: أن يكون المراد من الدين الحساب، والمعنى أنكم تكذبون بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

والمعنى التعجب من حالهم، كأنه سبحانه قال: إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧-١٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، ثم ههنا مباحث:

الأول: من الناس من طعن في حضور الكرام الكاتبين من وجوه: أحدها: أن هؤلاء الملائكة إما أن يكونوا مركبين من الأجسام اللطيفة كالهواء والنسيم والنار، أو من الأجسام الغليظة، فإن كان الأول لزم أن تنتقض بنيتهم بأدنى سبب من هبوب الرياح الشديدة وإمرار اليد والكم والسوط في الهواء، وإن كان الثاني وجب أن نراهم إذ لو جاز أن يكونوا حاضرين ولا نراهم، لجاز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار وفيلات وبوقات، ونحن لا نراها ولا نسمعها، وذلك دخول في التجاهل، وكذا القول في إنكار صحائفهم وذواتهم وقلمهم. وثانيها: أن هذا الاستكتاب إن كان خاليًا عن الفوائد فهو عبث وذلك غير جائز على الله تعالى، وإن كان فيه فائدة فتلك الفائدة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد، والأول محال لأنه متعالٍ عن النفع والضر، وبهذا يظهر بطلان قول من يقول: إنه تعالى إنما استكتبها خوفًا من النسيان، والغلط والثاني أيضًا محال؛ لأن أقصى ما في الباب أن يقال: فائدة هذا الاستكتاب أن يكونوا شهودًا على الناس وحجة عليهم يوم القيامة، إلا أن هذه الفائدة ضعيفة؛ لأن الإنسان الذي علم أن الله تعالى لا يجور ولا يظلم، لا يحتاج في حقه إلى إثبات هذه الحجة، والذي لا يعلم ذلك لا ينتفع بهذه الحجة لاحتمال أنه تعالى أمرهم بأن يكتبوا تلك الأشياء عليه ظلمًا. وثالثها: أن أفعال القلوب غير مرئية ولا محسوسة فتكون هي من باب المغيبات، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى على ما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] وإذا لم تكن هذه الأفعال معلومة للملائكة استحال أن يكتبوها، والآية تقضي أن يكونوا كاتبين علينا كل ما نفعله، سواء كان ذلك من أفعال القلوب أم لا؟ والجواب عن الأول: أن هذه الشبهة لا تزال إلا على مذهبنا بناء على أصلين: أحدهما: أن البنية ليست شرطًا للحياة عندنا. والثاني: أي عند سلامة الحاسة وحضور المرئي

وحصول سائر الشرائط لا يجب الإدراك، فعلى الأصل الأول يجوز أن تكون الملائكة أجرامًا لطيفة تتمزق وتتفرق ولكن تبقى حياتها مع ذلك، وعلى الأصل الثاني يجوز أن يكونوا أجسامًا كثيفة لكنا لا نراها. **والجواب عن الثاني:** أن الله تعالى إنما أجرى أموره مع عباده على ما يتعاملون به فيما بينهم؛ لأن ذلك أبلغ في تقرير المعنى عندهم، ولما كان الأبلغ عندهم في المحاسبة إخراج كتاب بشهود خوطبوا بمثل هذا فيما يحاسبون به يوم القيامة، فيخرج لهم كتب منشورة، ويحضر هناك ملائكة يشهدون عليهم كما يشهد عدول السلطان على من يعصيه ويخالف أمره، فيقولون له: أعطاك الملك كذا وكذا، وفعل بك كذا وكذا، ثم قد خالفته وفعلت كذا وكذا. فكذا ههنا والله أعلم بحقيقة ذلك. **الجواب عن الثالث:** أن غاية ما في الباب تخصيص هذا العموم بأفعال الجوارح، وذلك غير ممتنع.

البحث الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ وإن كان خطاب مشافهة، إلا أن الأمة مجمعة على أن هذا الحكم عام في حق كل المكلفين، **ثم ههنا احتمالان:**

أحدهما: أن يكون هناك جمع من الحافظين، وذلك الجمع يكونون حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم.

وثانيهما: أن يكون الموكل بكل واحد منهم غير الموكل بالآخرة ثم يحتمل أن يكون الموكل بكل واحد من بني آدم واحدًا من الملائكة لأنه تعالى قابل الجمع بالجمع، وذلك يقتضي مقابلة الفرد بالفرد، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعًا من الملائكة، كما قيل: اثنان بالليل، واثنان بالنهار، أو كما قيل: إنهم خمسة.

البحث الثالث: أنه تعالى وصف هؤلاء الملائكة بصفات: **أولها:** كونهم حافظين. **وثانيها:** كونهم كرامًا. **وثالثها:** كونهم كاتبين. **ورابعها:** كونهم يعلمون ما تفعلون، وفيه وجهان: **أحدهما:** أنهم يعلمون تلك الأفعال حتى يمكنهم أن يكتبوها، وهذا تنبيه على أن الإنسان لا يجوز له الشهادة إلا بعد العلم. **والثاني:** أنهم يكتبونها حتى يكونوا عالمين بها عند أداء الشهادة.

واعلم أن وصف الله إياهم بهذه الصفات الخمسة يدل على أنه تعالى أثنى عليهم وعظَّم شأنهم، وفي تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله تعالى من جلائل الأمور، ولولا ذلك لما وكل بضبط ما يحاسب عليه هؤلاء العظماء الأكابر، قال أبو عثمان: من يزجره من المعاصي مراقبة الله إياه، كيف يرده عنها كتابة الكرام الكاتبين؟!

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

النوع الثالث من تفاريع مسالة الحشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾.

اعلم أن الله تعالى لما وصف الكرام الكاتبين لأعمال العباد، ذكَر أحوال العاملين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ وهو نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وهو النار، **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: أن القاطعين بوعيد أصحاب الكبائر تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: صاحب الكبيرة فاجر، والفجار كلهم في الجحيم؛ لأن لفظ الجحيم إذا دخل عليه الألف واللام أفاد الاستغراق. والكلام في هذه المسألة قد استقصيناه في سورة البقرة، وههنا نكت زائدة لا بد من ذكرها، **قالت الوعيدية:** حصلت في هذه الآية وجوه دالة على دوام الوعيد: **أحدها:** قوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ويوم الدين يوم الجزاء ولا وقت إلا ويدخل فيه، كما تقول: يوم الدنيا ويوم الآخرة. **الثاني:** قال الجبائي: لو خصصنا قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ لكان بعض الفجار يصيرون إلى الجنة، ولو صاروا إليها لكانوا من الأبرار، وهذا يقتضي أن لا يتميز الفجار عن الأبرار، وذلك باطل لأن الله تعالى ميز بين الأمرين، فإذن يجب أن لا يدخل الفجار الجنة كما لا يدخل الأبرار النار. **والثالث:** أنه تعالى قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ وهو كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] وإذا لم يكن هناك موت ولا غيبة فليس بعدهما إلا الخلود في النار أبد الآبدين، ولما كان اسم الفاجر يتناول الكافر والمسلم صاحب الكبيرة، ثبت بقاء أصحاب الكبائر أبدًا في النار، وثبت أن الشفاعة للمطيعين لا لأهل الكبائر. **والجواب عنه:** أنا بينا أن دلالة ألفاظ العموم على الاستغراق دلالة ظنية ضعيفة والمسألة قطعية، والتمسك بالدليل الظني في المطلوب القطعي غير جائز، بل ههنا ما يدل على قولنا؛ لأن استعمال الجمع المعرف بالألف واللام في المعهود السابق شائع في اللغة، فيحتمل أن يكون اللفظ ههنا عائدًا إلى الكافرين الذين تقدم ذكرهم من المكذبين بيوم الدين، والكلام في ذلك قد تقدم على سبيل الاستقصاء، سلَّمنا أن العموم يفيد القطع، لكن لا نسلِّم أن صاحب الكبيرة فاجر، والدليل عليه قوله تعالى في حق الكفار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢] فلا يخلو إما أن يكون المراد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ الذين يكونون من جنس الفجرة أو المراد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ وهم ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ والأول باطل لأن كل كافر فهو فاجر بالإجماع، فتقييد الكافر بالكافر الذي يكون من جنس الفجرة عبث، وإذا بطل هذا القسم بقي الثاني، وذلك يفيد الحصر، وإذا دلت هذه الآية على أن الكفار هم الفجرة لا غيرهم، ثبت أن صاحب الكبيرة ليس بفاجر على الإطلاق. سلَّمنا أن الفجار يدخل تحته الكافر والمسلم، لكن قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ معناه أن مجموع الفجار لا يكونون غائبين، ونحن نقول بموجبه: فإن أحد نوعي الفجار وهم الكفار لا يغيبون، وإذا كان كذلك ثبت أن صدق قولنا: (إن الفجار بأسرهم لا يغيبون) يكفي فيه أن لا يغيب الكفار، فلا حاجة في صدقه إلى أن لا يغيب المسلمون، سلَّمنا ذلك لكن قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ يقتضي كونهم في الحال في الجحيم وذلك كذب، فلا بد من صرفه عن الظاهر، فهم يحملونه على أنهم بعد الدخول في الجحيم يصدق عليهم قوله: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ ونحن نحمل ذلك على أنهم في الحال ليسوا

غائبين عن استحقاق الكون في الجحيم، إلا أن ثبوت الاستحقاق لا ينافي العفو. سلَّمنا ذلك لكنه معارض بالدلائل الدالة على العفو وعلى ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر؛ والترجيح لهذا الجانب؛ لأن دليلهم لا بد وأن يتناول جميع الفجار في جميع الأوقات، وإلا لم يحصل مقصودهم، ودليلنا يكفي في صحته تناوله لبعض الفجار في بعض الأوقات، فدليلهم لا بد وأن يكون عامًّا، ودليلنا لا بد وأن يكون خاصًّا، والخاص مقدم على العام، والله أعلم.

المسألة الثانية: فيه تهديد عظيم للعصاة، حكي أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم على الله غدًا؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. قال: فبكى، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند الله! فقال أبو حازم: أعرض عملك على كتاب الله. قال: في أي مكان من كتاب الله؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وقال جعفر الصادق عليه السلام: النعيم: المعرفة والمشاهدة، والجحيم: ظلمات الشهوات. وقال بعضهم: النعيم: القناعة، والجحيم: الطمع، وقيل: النعيم: التوكل، والجحيم: الحرص، وقيل: النعيم: الاشتغال بالله، والجحيم: الاشتغال بغير الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

النوع الرابع: من تفاريع الحشر: تعظيم يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في الخطاب في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقال بعضهم: هو خطاب للكافر على وجه الزجر له. وقال الأكثرون: إنه خطاب للرسول، وإنما خاطبه بذلك لأنه ما كان عالمًا بذلك قبل الوحي.

المسألة الثانية: الجمهور على أن التكرير في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ لتعظيم ذلك اليوم، وقال الجبائي: بل هو لفائدة مجددة، إذ المراد بالأول أهل النار، والمراد بالثاني أهل الجنة، كأنه قال: وما أدراك ما يعامل به الفجار في يوم الدين؟ ثم ما أدراك ما يعامل به الأبرار في يوم الدين؟ وكرر يوم الدين تعظيمًا لما يفعله تعالى من الأمرين بهذين الفريقين.

المسألة الثالثة: في: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ قراءتان الرفع والنصب، أما الرفع ففيه وجهان: أحدهما: على البدل من يوم الدين. **والثاني:** أن يكون بإضمار (هو) فيكون المعنى (هو يوم لا تملك) وأما النصب ففيه وجوه: **أحدها:** بإضمار (يدانون) لأن الدين يدل عليه. **وثانيها:** بإضمار (اذكروا) **وثالثها:** ما ذكره الزجاج: يجوز أن يكون في موضع رفع إلا أنه يبنى على الفتح لإضافته

إلى قوله: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح، وإن كان في موضع رفع أو جر، كما قال:

لَمْ يَمْنَعِ الشُّرْبَ مِنْهُمْ غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أَوْ قَالِ

فبنى غير على الفتح لما أضيف إلى قوله: (إن نطقت) قال الواحدي: والذي ذكره الزجاج من البناء على الفتح إنما يجوز عند الخليل وسيبويه، إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضي، نحو قولك: (على حين عاتبت) أما مع الفعل المستقبل، فلا يجوز البناء عندهم، ويجوز ذلك في قول الكوفيين، وقد ذكرنا هذه المسألة عند قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] ورابعها: ما ذكره أبو علي وهو أن اليوم لما جرى في أكثر الأمر ظرفًا ترك على حالة الأكثرية، والدليل عليه إجماع القراء والعرب في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ولا يرفع ذلك أحد، ومما يقوي النصب قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ [القارعة: ٣، ٤] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٢، ١٣] فالنصب في ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ مثل هذا.

المسألة الرابعة: تمسكوا في نفي الشفاعة للعصاة بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] والجواب عنه قد تقدم في سورة البقرة.

المسألة الخامسة: أن أهل الدنيا كانوا يتغلبون على الملك ويعين بعضهم بعضًا في أمور، ويحمي بعضهم بعضًا، فإذا كان يوم القيامة بطل مُلْك بنى الدنيا وزالت رياستهم، فلا يحمي أحد أحدًا، ولا يغني أحد عن أحد، ولا يتغلب أحد على ملك. ونظيره قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وهو وعيد عظيم من حيث إنه عَرَّفهم أنه لا يغني عنهم إلا البر والطاعة يومئذٍ دون سائر ما كان قد يغني عنهم في الدنيا من مال وولد وأعوان وشفعاء. قال الواحدي: والمعنى أن الله تعالى لم يُملك في ذلك اليوم أحدًا شيئًا من الأمور، كما مَلَّكهم في دار الدنيا. قال الواسطي: في قوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إشارة إلى فناء غير الله تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه.

وأما قوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهو إشارة إلى أن البقاء والوجود لله، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم وفي الآخرة، ولم يتغير من حال إلى حال، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر، لا إلى أحوال المنظور إليه، فالكاملون لا تتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات، كما قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، وكحارثة لما أخبر بحضرة النبي ﷺ يقول: «كأني أنظر وكأني وكأني» والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين.

سورة الانفطار

مكية عند الجميع، وهي تسعَ عَشرةَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: تَشقَّقتْ بأمر الله لنزول الملائكة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقيل: تفطَّرتْ لهيبةِ اللهِ تعالى.

والفَطْر: الشَّقُّ؛ يقال: فَطرتُه فانْفطَر، ومنه: فَطَر نابُ البعير: طَلَع، فهو بعيرٌ فاطِرٌ، وتَفَطَّر الشيءُ: تشقَّق، وسيفٌ فُطارٌ، أي: فيه شقوق؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقةِ وهو كِمْعي ... سلاحي لا أفلَّ ولا فُطارا

وقد تقدَّم في غير موضع[1].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تَساقَطَتْ؛ نَثرْتُ الشيءَ أَنثرُه نَثراً، فانتثر، والاسمُ: النِّثار[2]. والنُّثار بالضم: ما تَناثَر من الشيء، ودُرٌّ مُنثَّر، شُدِّد للكَثْرة.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فُجِّر بعضُها في بعضٍ، فصارتْ بحراً واحداً، على ما تقدَّم[3]. قال الحسن: فُجِّرت: ذهب ماؤها ويبِسَت[4]، وذلك أنها أوّلاً راكدةٌ

---

(١) سلف الكلام مع البيت ١٧/ ٣٤٠.

(٢) بكسر النون كما في مختار الصحاح، والكلام من الصحاح (نثر).

(٣) ص٩٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٥ بلفظ: فجرٌ بعضها في بعض فذهب ماؤها.

مجتمعةٌ، فإذا فُجّرتْ تفرَّقَتْ، فذهب ماؤها. وهذه الأشياءُ بين يدي الساعة، على ما تقدَّم في «إذا الشمس كورت».

و﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُلِبتْ فأُخرِجَ ما فيها من أهلها أحياءً؛ يقال: بَعثرتُ المتاعَ: قلبته ظهراً لبَطْنٍ، وبَعثَرتُ الحوضَ وبحثَرته: إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه. وقال قوم منهم الفرّاء[1]: «بعثِرت»: أَخْرجتْ ما في بطنها من الذهب والفضة. وذلك من أشراط الساعة: أن تُخرِجَ الأرضُ ذهبَها وفضَّتها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ مثل: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وتقدَّم. وهذا جوابُ «إذا السماءُ انْفَطَرَتْ» لأنه قَسَمٌ في قولِ الحسنِ وَقَع على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾[2]. يقول: إذا بَدَتْ هذه الأمورُ من أشراطِ الساعة خُتِمَت الأعمالُ، فعَلِمَتْ كلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ، فإنَّها لا ينفعُها عملٌ بعد ذلك.

وقيل: أي: إذا كانت هذه الأشياءُ قامت القيامة، فحوسِبَتْ كلُّ نفسٍ بما عَمِلَتْ، وأُوتِيَتْ كتابَها بيمينها أو بشمالها، فتذكَّرتْ عند قراءتِه جميعَ أعمالها.

وقيل: هو خبرٌ وليس بقَسَمٍ، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خاطَبَ بهذا مُنْكِري البعثِ. وقال ابن عباس: الإنسانُ هنا: الوليدُ بن المغيرة[3]. وقال عكرمة: أبيّ بنُ خَلَف[4]. وقيل: نزلت في

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٣.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٢١.

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ٧٩ من طريق عطاء عن ابن عباس. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤، والبغوي ٤/ ٤٥٥ عن عطاء قوله.

(٤) أخرجه ابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.

أبي الأشدِّ بنِ كَلَدة الجُمَحِيّ. عن ابن عباس أيضاً[١].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ أي: ما الذي غرَّك حتى كَفَرْتَ بربِّك الكريم، أي: المتجاوِزِ عنك. قال قتادةُ: غرَّه شيطانُه المسلَّطُ عليه[٢]. الحسن: غرَّه شيطانُه الخبيث[٣].

وقيل: حُمقُه وجَهْلُه؛ رواه الحسن عن عمر ﷺ[٤].

وروى غالبٌ الحنفيُّ قال: لمَّا قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ قال: «غرَّه الجَهْلُ»[٥].

وقال صالح بنُ مسمار: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾؟ فقال: «غرَّه جَهْلُه»[٦]. وقاله عمر ﷺ؛ قال: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢][٧].

وقيل: غرَّه عَفْوُ اللهِ، إذ لم يُعاقِبْه في أوّل مرَّةٍ[٨]. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفُضَيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يومَ القيامةِ بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، ماذا كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقولُ: غَرَّني سُتُورُك الْمُرْخَاةُ؛ لأنَّ الكريم هو الستَّار. نَظَمه ابنُ السَّمَّاكِ فقال:

يا كاتمَ الذنبِ أمَا تستحي والله في الخُلْوةِ ثانيكا

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٢١ ، وزاد المسير ٩/ ٤٧ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٥٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ١٧٨ .

(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٢٢ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم، كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٧١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٥ . وصالح بن مسمار بصريٌّ سكن الجزيرة، وروى عن الحسن البصري وابن سيرين. ذكره الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٠٠ تمييزاً.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٤٤٦ .

(٨) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٤ ، وفيه: ... في أول أمره.

غَـــرَّكَ مـــن ربِّـــك إمـــهـــالُـــهُ وسَـــتْـــرُه طـــولَ مَـــسَـــاوِيـــكَـــا[١]

وقال ذو النون المِصْريُّ: كم من مغرورٍ تحت السَّتْرِ وهو لا يَشْعرُ.

وأنشد أبو بكر بن طاهر الأبهريُّ:

يـا مَـن غـلا فـي الـعُـجْـبِ والـتِّـيـهِ وغـــرَّه طـــولُ تَـــمَـــادِيـــهِ

أَمْـلَـى لـك الـلـه فـبـارَزْتَـه ولـم تَـخَـفْ غِـبَّ مَـعَـاصِـيـهِ[٢]

وروي عن عليٍّ ﷺ أنه صاح بغلامٍ له مرَّاتٍ فلم يُلَبِّه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجِبْني؟ فقال: لِثقَتي بِحِلْمِكَ، وأَمْني من عقوبتك. فاستَحْسَنَ جوابَه فأعتقه[٣].

وناسٌ يقولون: ما غرَّك: ما خَدَعك وسَوَّل لك حتى أضعتَ ما وَجَبَ عليك؟

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ إلَّا وسَيَخْلو الله به يومَ القيامة، فيقول له: يا ابن آدمَ، ماذا غرَّك بي؟ يا ابن آدمَ ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟ يا ابن آدمَ، ماذا أجبتَ المُرْسَلين[٤]؟

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي: قدَّر خَلْقَكَ من نطفةٍ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ في بطن أمِّك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين، وسائرَ أعضائك ﴿فعدَّلكَ﴾ أي: جعلك معتدلاً سَوِيَّ الخَلْقِ؛ كما يقال: هذا شيءٌ معدَّلٌ. وهذه قراءةُ العامَّةِ[٥]، وهي اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ قال الفرَّاء وأبو عبيد: يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤][٦].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٣٥، وخبر الفضيل دون الأبيات في الكشاف ٤/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٤٥٥.

(٢) الوسيط ٤/ ٤٣٥.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٢٧. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٢: لم أجده.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٧٥)، والطبراني في الكبير (٨٨٩٩).

(٥) وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر من السبعة. السبعة ص ٦٧٤، والتيسير ص ٢٢٠.

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٤.

وقرأ الكوفيون عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ مخفَّفاً، أي: أمالَكَ وصَرَفَكَ إلى أيِّ صورةٍ شاء، إمَّا حَسَنًا وإمَّا قبيحاً، وإمَّا طويلاً وإمَّا قصيراً. وقال [موسى بن عُليّ بن رَباحٍ اللَّخْميُّ، عن أبيه، عن جده:][(١)] قال لي النبيُّ ﷺ: «إنَّ النطفةَ إذا استقرَّتْ في الرَّحِمِ أَحْضَرها الله كلَّ نسبٍ بينها وبين آدم، أمَا قرأتَ هذه الآية: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؟» قال: «فيما بينك وبين آدم»[(٢)].

[وقال عكرمةُ وأبو صالح: «في أيِّ صورةٍ ما شاء ركَّبك»]: إنْ شاء في صورةِ إنسانٍ، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير[(٣)].

وقال مكحول: إنْ شاء ذَكَراً، وإن شاء أنثى.

وقال مجاهد: «في أيِّ صورةٍ» أي: في أيِّ شَبَهٍ؛ من أبٍ أو أمٍّ أو عمٍّ أو خالٍ أو غيرهم[(٤)].

و«في» متعلِّقةٌ بـ «ركَّبك». ولا تتعلَّق بـ «عَدَلك» على قراءةِ مَن خفَّف؛ لأنك تقول: عَدَلْتُ إلى كذا، ولا تقول: عَدَلتُ في كذا، ولذلك مَنَع الفرَّاء[(٥)] التخفيفَ؛ لأنه قدَّر «في» متعلِّقةً بـ «عدَّلك».

و«ما» يجوزُ أن تكون صِلَةً مؤكِّدةً، أي: في أيِّ صورةٍ شاء ركَّبكَ. ويجوزُ أن تكونَ شرطيةً، أي: إن شاء ركَّبك في غيرِ صورة الإنسانِ، من صورة قِرْدٍ أو حمارٍ أو

---

(١) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج، على ما يأتي، ووقع بدلاً منه في (د) و(ي): نجدة، وفي (ظ): أبو عبيدة.

(٢) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ١٨٠ ، والطبراني في الكبير (٤٦٢٤)، وعزاه السيوطي في الدر ٦/ ٣٢٣ للبخاري في تاريخه، وابن المنذر وابن شاهين وابن قانع. قال ابن كثير: وهذا الحديث لو صح لكان فيصلاً في هذه الآية، ولكن إسناده ليس بالثابت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٥ : فيه مطهَّر ابن الهيثم، وهو متروك.

(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٤٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه عن عكرمة وأبي صالح الطبري ٢٤/ ١٧٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ١٧٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٤ .

خنزير، فـ «ما» بمعنى الشَّرْطِ والجزاء، أي: في أيِّ صورةٍ ما شاء أن يُركِّبكَ فيها ركَّبك[(١)].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى: حقًّا و«ألَا»، فيبتدأ بها. ويجوزُ أن تكون بمعنى «لا»، على أن يكون المعنى: ليس الأمرُ كما تقولون من أنكم في عبادتكم غيرَ اللهِ مُحِقُّون. يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وكذلك يقول الفراء، يصير المعنى: ليس كما غُرِرْتَ به.

وقيل: أي: ليس الأمرُ كما تقولون، من أنه لا بعثَ. وقيل: هو بمعنى الرَّدْعِ والزَّجْر، أي: لا تغترُّوا بِحلْمِ الله وكرمه، فتتركوا التفكُّر في آياته.

ابن الأنباريِّ: الوقفُ الجيِّد على «الدِّينِ»، وعلى «ركَّبك»، والوقفُ على «كَلَّا» قبيح.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ يا أهلَ مكةَ ﴿بِٱلدِّينِ﴾ أي: بالحساب. و«بل» لنفي شيءٍ تقدَّمَ وتحقيقِ غيره. وإنكارُهم للبعث كان معلوماً، وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أي: رُقباء من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ أي: على الله، كقوله: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦] **.وهنا ثلاثُ مسائلَ:**

الأولى: رُوِي عن رسول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا الكرامَ الكاتبين الذين لا يُفارِقونكم إلَّا عند إحدى حالتين: الخِرَاءةُ أو الجماعُ، فإذا اغتسل أحدُكم فلْيَسْتَتِر بِجذْمِ [حائِطٍ] أو بغيره، أو لِيَسْتُرْه أخوه»[(٢)]. ورُوي عن عليٍّ ﷺ قال: لا يزالُ المَلَكُ مُوَلِّياً عن العبد ما دام باديَ العورةِ[(٣)]. ورُوِي: إنَّ العبد إذا دخل الحمَّامَ بغيرِ مئزرٍ لَعَنه مَلَكاه[(٤)].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٩٦ .

(٢) أخرجه البزار (٣١٧ - كشف)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/٣٢٣ ، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر. ووقع فيها: ببعيره، بدل: بغيره. والجِذْم: الأصل. القاموس (جذم). وقوله الخراءة، ليس في المصادر، ووقع بدلاً منه عند البزار وابن أبي الحاتم: الغائط، وعند ابن مردويه: حيث يكون الرجل على خلائه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الشيرازي عن أنس ﷺ، كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير، ورمز لضعفه. قال المناوي: =

الثانية: واختلف الناسُ في الكُفَّار؛ هل عليهم حفَظَةٌ أم لا؟ فقال بعضهم: لا؛ لأنَّ أمرهم ظاهِرٌ، وعملهم واحدٌ؛ قال الله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

وقيل: بل عليهم حفظةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ . كِرَامًا كَٰتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فأخبر أنَّ الكفار يكونُ لهم كتابٌ، ويكونُ عليهم حفَظَةٌ. فإن قيل: الذي على يمينه أيَّ شيء يكتبُ ولا حسنةَ له؟ قيل له: الذي يكتبُ عن شماله يكونُ بإذنِ صاحبه، ويكونُ شاهداً على ذلك وإن لم يَكْتُبْ. والله أعلم.

الثالثة: سئل سفيان: كيف تَعْلَم الملائكةُ أنَّ العبدَ قد هَمَّ بحسنةٍ أو سيئة؟ قال: إذا همَّ العبدُ بحسنةٍ وَجَدوا منه ريحَ المسك، وإذا همَّ بسيئةٍ وَجَدوا منه ريحَ النَّتْن. وقد مضى في «ق» عند قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [الآية: ١٨] زيادةُ بيانٍ لمعنى هذه الآيةِ.

وقد كَرِه العلماءُ الكلامَ عند الغائطِ والجماعِ، لمفارَقةِ المَلَكِ العبدَ عند ذلك. وقد مضى في آخر «آل عمران» القولُ في هذا[1].

وعن الحسن: «يعلمون»: لا يَخْفَى عليهم شيءٌ من أعمالكم.

وقيل: يعلمون ما ظَهَرَ منكم دون ما حدَّثتُم به أنفسَكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ تقسيمٌ مثل قوله: ﴿فَرِيقٌ

= وفيه أن كشف العورة أو بعضها بحضرة من لا يحل له النظر حرام، فإن كان بحضرة مَن يحلُّ له النظر إليها، أو كان خالياً وكشفها لحاجة جاز. فيض القدير ٦/ ١٢٤ .

(١) ٥/ ٤٦٦ .

فِي ٱلْجَنَّةِ . وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ[(١)] . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيتين [الروم: ١٤-١٥].

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يصيبُهم لهبُها وحرُّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاءِ والحساب، وكرَّر ذِكْرَه تعظيماً لشأنه، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وقال ابن عباس فيما روي عنه: كلُّ شيءٍ من القرآن من قوله: «وما أَدْرَاكَ»، فقد أَدْرَاه، وكلُّ شيءٍ من قوله: «وما يُدْرِيكَ»، فقد طُوِيَ عنه[(٢)].

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يومُ» بالرفع[(٣)]، على البدل من «يومُ الدينِ»، أو ردًّا على اليوم الأوّل، فيكون صفةً ونعتاً لـ «يوم الدينِ». ويجوزُ أن يُرفع بإضمارِ «هو». الباقون بالنصب على أنه في موضعِ رفعٍ، إلَّا أنه نُصِبَ لأنه مضاف غير مَحْضٍ[(٤)]، كما تقول: أَعْجبني يومَ يقومُ زيدٌ. وأنشد المبرِّد:

مِن أيِّ يَومَيَّ من الموتِ أَفِرّ أيومَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ[(٥)]

فاليومان الثَّانيان مخفوضان على الترجمة[(٦)] عن اليومين الأوَّلَيْن، إلَّا أنَّهما نُصِبا في اللفظ لأنَّهما أُضيفا إلى غيرِ مَحْضٍ[(٧)]. وهذا اختيارُ الفرَّاء والزجَّاج[(٨)].

---

(١) في النسخ: يصدعون، والمثبت هو الصواب.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وسلف في بداية تفسير سورة الحاقة عن يحيى بن سلام وسفيان بن عيينة.

(٣) السبعة ص ٦٧٤ ، والتيسير ص ٢٢٠ .

(٤) في (د) و(م): غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩ ، والكلام منه.

(٥) نسبه صاحب العقد الفريد ١/ ١٠٥ لعلي ﷺ، وهو دون نسبة في سر صناعة الإعراب ١/ ٧٥، والخصائص ٣/ ٩٤ ، والخزانة ١١/ ٤٥١ . والكلام من إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩ . قوله: لم يُقْدَرَ، قال البغدادي: يريد: لم يقدَرَن. وقال ابن جني: أراد: لم يُقْدَرْ أم، ثم خفف همزة أم، فحذفها وألقى حركتها على راء يُقْدَر.

(٦) في (د) و(م): مخفوضان بالإضافة عن الترجمة، وفي (ظ) و(ي): مخفوضان بالإضافة على الترجمة، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء.

(٧) في (ظ) و(ي): إلى غير متمكن، والمثبت من باقي النسخ وإيضاح الوقف والابتداء.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٥ ، وللزجاج ٥/ ٢٩٦ ، وقال فيه: يكون في موضع رفع وهو مبني على =

وقال قومٌ: اليومُ الثاني منصوبٌ على المحلِّ، كأنه قال: في يومِ لا تَملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً[١].

وقيل: بمعنى: إنَّ هذه الأشياءَ تكون يومَ، أو على معنى: يُدَانون يومَ؛ لأنَّ «الدِّين» يدلُّ عليه، أو بإضمارِ اذكُر[٢].

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا يُنازِعُه فيه أحدٌ، كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦-١٧]. تمت السورة والحمد لله.

= الفتح لإضافته إلى قوله: «لا تملك»؛ لأن ما أضيف إلى غير المتمكن قد يبنى على الفتح وإن كان في موضع رفع أو جر.

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٦٩ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٩ .

سورة ﴿انفطرت﴾

مكيَّةٌ، وآيُها تسعَ عشرةَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٤) ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾: انشقَّتْ ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾: تساقطَتْ مُتفرِّقَةً ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾: فُتِحَ بعضُها إلى بعضٍ فصارَ الكُلُّ بحرًا واحدًا ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾: قُلِبَ تُرابُها وأُخرِجَ مَوتاهَا، وقيل: إنه مُركَّبٌ مِن (بَعْث) وراءِ الإثارةِ[1]؛ كبَسْمَلَ، ونظيرهُ: «بُحْثِرَ» لفظًا ومَعنى.

(٥) ـ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ﴾ مِن عملٍ أو صَدقَةٍ ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ مِن سُنَّةٍ أو تَركةٍ، ويجوزُ أن يرادَ بالتَّأخيرِ التَّضييعُ، وهو جوابُ ﴿إِذَا﴾.

(٦) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾: أيُّ شيءٍ خدعَكَ وجرَّأَكَ على عصيانِه؟

وذكرُ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ للمُبالغَةِ في المنعِ عن الاغترارِ؛ فإنَّ محضَ الكرمِ لا يقتَضِي إهمالَ الظَّالمِ وتسويةَ المُوَالي والمُعَادي والمطيعِ والعاصي، فكيفَ إذا انضمَّ إليه صفةُ القهرِ والانتقامِ؟

---

(١) قوله: «مركب من بعث وراء الإثارة» أي: والراءِ التي في الإثارة، انظر: «حاشية الأنصاري»: (٥/ ٤٦٩).

والإشعارِ[1] بما به يَغرُّهُ الشَّيطانُ؛ فإنَّه يقولُ له: افعَلْ ما شئتَ فربُّكَ كريمٌ لا يُعذِّبُ أحدًا، أو: لا يُعاجِلُ بالعُقوبَةِ.

والدَّلالةِ على أنَّ كثرةَ كرمِه تَستَدعي الجِدَّ في طاعَتِه، لا الانهماكَ في عِصيانِه اغترارًا بكرمِه.

(٧) ـ ﴿الذي خلقَكَ فسوَّاكَ فعَدَّلَكَ﴾ صفةٌ ثانيَةٌ مُقرِّرَةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنَةٌ[2] للكَرمِ، مُنبِّهَةٌ على أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك أولاً قدرَ عليه ثانيًا.

والتَّسويةُ: جعلُ الأَعضاءِ سَليمَةً مُسوَّاةً مُعَدَّةً لِمَنافِعِها.

والتَّعديلُ: جعلُ البِنيةِ مُعتَدِلَةً مُتناسِبَةَ الأَعضاءِ، أو مُعدَّلَةً بما يَستَعِدُّها[3] من القُوَى.

وقرأ الكوفيُّونَ: ﴿فعَدَلَكَ﴾ بالتَّخفيفِ[4]؛ أي: عَدَلَ بعضَ أعضائِكَ ببعضٍ حتى اعتدَلْتَ، أو: فصرفكَ عن خلقةِ غيرِكَ وميَّزكَ بخلقَةٍ فارَقَتْ خلقةَ سائرِ الحيواناتِ.

(٨) ـ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ أي: ركَّبكَ في أيِّ صُورَةٍ شاءَها، و﴿مَّا﴾ مَزيدةٌ، وقيل: شرطيَّةٌ و﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابُها، والظَّرفُ صِلَةُ (عدَّلك)، وإنَّما لم يَعطِفِ الجملةَ على ما قبلَها لأنها بيانٌ لـ(عدَّلك).

---

(١) قوله: «والإشعار»: هو مع ما بعده عطفٌ على «المبالغة»، انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٤٦٩).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «مثبتة»، وأشار إليها الخفاجي في «حاشيته».

(٣) في نسخة الفاروقي: «تستعده»؛ والمثبت من باقي النسخ وعليه شرح شيخ زاده فقال: والمنوي في «يستعدها» ضمير البنية بتقدير المضاف وهو الأعضاء؛ أي: والتعديل جعل كل عضو من أعضاء البنية معادلاً مناسباً لما بني له من القوة؛ كاليد للبطش والرجل للمشي والعين للإبصار واللسان للتكلم، فالتعديل على هذا بين الأعضاء ومنافعها التي هي القوى المودعة فيها، والبارز المنصوب في «يستعدها» عائد إلى «ما» وأُنث لكونها عبارة عن القوى. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٨/ ٥٣٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٤)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٩) ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عَن الاغترارِ بكرمِ اللهِ، وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ إضرابٌ إلى بيانِ ما هو السَّببُ الأَصليُّ في اغترارِهِم، والمرادُ بالدِّينِ: الجزاءُ أو الإسلامُ.

(١٠ ـ ١٢) ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيقٌ لِمَا يكذِّبونَ بهِ، وردٌّ لِمَا يتوقَّعُونَ مِن التَّسامُحِ والإهمالِ[١]، وتَعظيمُ الكَتَبَةِ بكونِهم كرامًا عندَ اللهِ لتَعظيمِ الجَزاءِ.

(١٣ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ بيانٌ لِمَا يَكتبونَ لأَجلِه[٢] ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: يقاسونَ حَرَّها ﴿يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ لخُلُودِهِم فيها.

وقيل: معناه: وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك؛ إذ كانوا يَجِدُونَ سَمومَهَا[٣] في القبورِ.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تعجيبٌ وتَفخيمٌ لشَأنِ اليَومِ؛ أي: كُنْهُ أمرِهِ بحيثُ لا تُدرِكُه درايَةُ دارٍ.

(١٩) ـ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ تقريرٌ لشدَّةِ هولِه وفَخامَةِ أَمرِهِ إجمالًا، ورفعَ ابنُ كثيرٍ والبَصريَّانِ: ﴿يومُ﴾[٤] على البدلِ مِن ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ أو الخبرِ المَحذوفِ.

قال عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ انفطَرَتْ كتبَ اللهُ لهُ بعددِ كلِّ قطرَةٍ مِن السَّماءِ حسنةً وبعددِ كلِّ قبرٍ حسنَةً»[٥].

---

(١) في نسخة الخيالي: «والإمهال».

(٢) قولُه: «بيانٌ لِـما يكتُبونَ لأجلِه» يعني: أنَّها جُملةٌ مُستأنفةٌ في جوابِ سؤالٍ تقديرُه: لِـمَ يكتُبونَ ذلك؟ فكأنَّه قيلَ: ليُجازَى الأبرارُ بالنَّعيمِ والفُجّارُ بالجحيمِ. قاله الشهاب.

(٣) بضمِّ السِّينِ بمعنى حرِّها، أو بفتحِ السِّينِ بمعنى ريحِها الحارّةِ. قاله الشهاب.

(٤) وقرأ الباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٦٧٤)، و«التيسير» (ص: ٢٢٠).

(٥) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٣٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٨٢) سورة الانفطار مكية
وآياتها تسع عشرة

قد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾، و ﴿إذا السماء انفطرت﴾، و ﴿إذا السماء انشقت﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي أنشقت، كما قال تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾، ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي تساقطت، ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال ابن عباس: فجر الله بعضها في بعض، وقال الحسن: فجر الله بعضها في بعض فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها، وقال الكلبي: ملئت. ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بحثت. وقال السدي: تبعثر - تحرك فيخرج من فيها، ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾؟ هذا تهديد من الله للإنسان[1] والمعنى: ما غرك يا ابن آدم ﴿بربك الكريم﴾ أي العظيم، حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا ابن آدم ما غرك بي؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»؟ وعن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله، وقال قتادة: ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان، وقال الفضل

(١) الكلام تهديد كما قال ابن كثير، وليس كما زعم بعضهم أنه إرشاد إلى الجواب حتى قالوا:

ابن عياض: لو قال لي: ما غرّك بي؟ لقلت: ستورك المرخاة، وقال أبو بكر الوراق: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟ لقلت: غرني كرم الكريم، وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة، وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل، لأنه إنما أتى باسمه الكريم، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور، وقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسواك فعدلك﴾ أي جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة، منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي: قلت: أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟»[1] .

وقوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ قال مجاهد: في أي شبه أب أو أم، أو خال أو عم، وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ إن شاء في صورة قرد، وإن شاء في صورة خنزير، وكذا قال أبو صالح: إن شاء في صورة كلب، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة خنزير، وقال قتادة: قادر والله ربنا على ذلك، ومعنى هذا القول عندهم أن الله عزَّ وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح، من الحيوانات المنكرة الخلق، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه، يخلقه على شكل حسن مستقيم، معتدل تام حسن المنظر والهيئة. وقوله تعالى: ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي، تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب، وقوله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً، فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجرم حائط أو ببعيره». وفي الحديث: «ما من حافظين يرفعان إلى الله عزَّ وجلَّ ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة، وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»[2]، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يعرفون بني آدم - وأحسبه قال ويعرفون أعمالهم - فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه، وقالوا: أفلح الليلة فلان، نجا الليلة فلان، وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسموه وقالوا: هلك الليلة فلان»[3]

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة .

(٢) أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعاً . (٣) أخرجه البزار أيضاً وفي سنده سلام المدائني ليّن الحديث .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم، وهم الذين أطاعوا الله عزَّ وجلَّ ولم يقابلوه بالمعاصي، ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال: ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة، ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً، وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة، ثم أكده بقوله تعالى: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، وفي الحديث قال عليه السلام: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً»، ولهذا قال: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ كقوله تعالى: ﴿لمن الملك اليوم ۝ لله الواحد القهار﴾ قال قتادة: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والأمر والله اليوم لله، لكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

[آخر تفسير سورة الإنفطار، ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة]

* * *

تفسير سورة الانفطار

وهى مكية .

قال النسائى : أخبرنا محمد بن قدامة ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن محارب بن دثَار ، عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبى ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ! [أفتان يا معاذ؟!] (١) أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت ؟! » (٢) .

وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين(٣) ، ولكن ذُكرَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت﴾ فى (٤) أفراد النسائى . وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « من سرَّه أن يَنْظُرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَت ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت . كما قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل:١٨] .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ أى : تساقطت .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط مالحها بعذبها . وقال الكلبى : ملئت .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾: قال ابن عباس : بُحِثَت. وقال السدى: تُبعثر : تُحرّك فيخرج من فيها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حَصَلَ هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ؟ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس

(١) زيادة من سنن النسائى .

(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٥٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٠،٧١١) وصحيح مسلم برقم (٤٦٥) .

(٤) فى م ،أ :« من» .

(٥) تقدم تخريج الحديث عند تفسير سورة التكوير ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٣٣٣) .

من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم ــ أى : العظيم ــ حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن [١] آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان : أن عمر سمع رجلا يقرأ: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ، فقال عمر : الجهل [٢] .

وقال أيضا : حدثنا عمر بن شبَّة ، حدثنا أبو خلف ، حدثنا يحيى البكاء ، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال ابن عمر: غره ــ والله ــ جهله.

قال : ورُوى عن ابن عباس ، والربيع بن خُثَيم [٣] ، والحسن ، مثلُ ذلك .

وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىءٌ ، ما غرَّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى: « ما غرك بى [٤] » ، لقلت : سُتُورك الُمرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم .

قال البغوى : وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال: ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة[٥] .

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؛ لأنه إنما أتى باسمه ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ؛ لينبه [٦] على أنه لا ينبغى أن يُقَابَل الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء .

و[قد] [٧] حكى البغوى ، عن الكلبى ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذه الآية فى الأسود بن شَرِيق، ضرب النبى ﷺ ولم يعاقب فى الحالة الراهنة ، فأنزل الله: ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ؟ [٨].

وقوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أى : جعلك سَويا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا حَرِيزُ ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيسرة ، عن جُبير ابن نُفَير ، عن بُسْر بن جِحَاش القرشى : أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن [٩] آدم ، أَنَّى تُعجِزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى

---

(١) فى م :« يا ابن » .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٤٣٩) وعزاه لابن المنذر وسعيد بن منصور أيضا .

(٣) فى أ : « خيثم » .

(٤) فى أ :« بربك » .

(٥) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٥٦) .

(٦) فى أ : « للتنبيه » .

(٧) زيادة من م .

(٨) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٥٦) .

(٩) فى م : « يا ابن » .

إذا سَوّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئِيدٌ ، فجَمَعت ومَنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدقُ ، وأنَّى أوانُ الصدقة » .

وكذا رواه ابن ماجة ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَرِيز بن عثمان ، به (١) .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزِّى : وتابعه يحيى بن حمزة ، عن ثور بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن ميسرة (٢) .

وقوله: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾: قال مجاهد : فى أى شَبَه أب أو أم أو خال أو عم ؟

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن سنان القزاز ، حدثنا مُطَهَّر بن الهيثم ، حدثنا موسى بنُ عُلَىِّ ابن رَبَاح ، حدثنى أبى ، عن جدى : أن النبى ﷺ قال له : « ما ولد لك ؟» قال : يا رسول الله، ما عسى أن يُولَد لى ؟ إما غلام وإما جارية . قال : « فمن يشبه ؟» . قال : يا رسول الله ، من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى ﷺ عندها : « مه . لا تقولَنَّ هكذا ، إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ؟ أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ » (٣) قال : سلَكك (٤) .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم والطبرانى ، من حديث مُطهر بن الهيثم ، به (٥) . وهذا الحديث لو صح لكان فيصلا فى هذه الآية ، ولكن إسناده ليس بالثابت ؛ لأن « مُطَهَّر بن الهيثم » قال فيه أبو سعيد بن يونس : كان متروك الحديث . وقال ابن حبان : يُرْوى عن موسى بن على وغيره ما لا يُشبهُ حَديثَ الأثبات . ولكن فى الصحيحين عن أبى هُرَيرة أن رَجُلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتى وَلَدت غُلاماً أسودَ ؟ . قال : «هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حُمر . قال : « فهل فيها من أورَق ؟ » قال : نعم . قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نَزَعة عِرْق . قال : «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » (٦) .

وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير .

وقال قتادة : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، قال : قادر ــ والله ــ ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله، عز وجل، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات

---

(١) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٥) : « إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٢) تحفة الأشراف للمزى (٢/ ٩٧) .
(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ٥٥) .
(٤) فى م : «شكلك » .
(٥) المعجم الكبير (٥/ ٧٤) .
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٣٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٥٠٠) .

المنكرة الخلق ،ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ،حَسَن المنظر والهيئة .

وقوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّين ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكةً حَفَظَة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطُّنَافسىّ ، حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ومِسْعَر ، عن علقمة بن مَرْثَد ، عن مجاهد قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط . فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بحرم حائط أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، فوصله بلفظ آخر ، فقال : حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن حفص بن سليمان ، عن علقمة بن مرثد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ينهاكم عن التعرِّى ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين ، الذين لا يُفَارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل . فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه ، أو بجرم حائط ، أو ببعيره » .

ثم قال : حفص بن سليمان لين الحديث ، وقد روى عنه ، واحتمل حديثه (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مُبَشّر بن إسماعيل الحلبى ، حدثنا تمام ابن نَجِيح ، عن الحسن ــ يعنى البصرى ــ عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله، عز وجل، ما حفظا فى يوم ، فيرى فى أول الصحيفة وفى آخرها استغفار إلا قال الله تعالى : قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » .

ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح ، وهو صالح الحديث (٢).

قلت : وثقه ابن معين وضعفه البخارى ، وأبو زُرْعة ، وابن أبى حاتم والنسائى ، وابن عدى . ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادى المعروف بالقُلُوسِى (٣) ، حدثنا بيان بن حمران (٤) ، حدثنا سلام ، عن منصور بن زاذان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ :« إن لله ملائكة (٥) يعرفون بنى آدم ــ وأحسبه قال :ويعرفون أعمالهم ــ فإذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسَمَّوه ، وقالوا : هلك الليلة فلان » .

(١) مسند البزار برقم (٣١٧) « كشف الأستار » .
(٢) مسند البزار برقم (٣٢٥٢) « كشف الأستار » .
(٣) فى مسند البزار :« الفلوسى » نسبة إلى الفلوس .
(٤) فى أ: « عمران » .
(٥) فى م:« إن ملائكة الله » .

ثم قال البزار : سلام هذا ، أحسبه سلام المدائنى ، وهو لين الحديث [1] .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ،ولم يقابلوه بالمعاصى .

وقد روى ابن عساكر فى ترجمة « موسى بن محمد » ، عن هشام بن عمار ، عن عيسى بن يونس بن أبى إسحاق ، عن عبيد الله ، عن محارب ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بَروا الآباء والأبناء » [2] .

ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ؛ ولهذا قال : **﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾** أى: يوم الحساب والجزاء والقيامة ، **﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾** أى : لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : **﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾** تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله : **﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾** ، ثم فسره بقوله : **﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾** أى: لا يقدر واحد [3] على نفع أحد ولا خَلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

ونذكر هاهنا حديث : « يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا ». وقد تقدم فى آخر تفسير سورة « الشعراء » ؛ ولهذا قال : **﴿ وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾** ، كقوله : **﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾** [غافر:١٦] ، وكقوله : **﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾** [الفرقان:٢٦]، وكقوله: **﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾** [الفاتحة:٤] .

قال قتادة : **﴿ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾** ، والأمر ـ والله ـ اليوم لله ، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد .

آخر تفسير سورة «الانفطار » ولله الحمد

(١) مسند البزار برقم (٢١٩٥) « كشف الأستار » .

(٢) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٠٠ « المخطوط») .

(٣) فى أ :« أحد » .

سورة الانفطار[1]

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أي: انشقَّت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ، ١٩/٧٨]، والكلام في ارتفاع ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ كما مرّ في ارتفاع ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾.[2]

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ أي: تساقطت متفرِّقةً.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ فُتح بعضها إلى بعض فاختلط العذبُ بالأُجاج وزال ما بينهما مِن البرزخ الحاجز، وصارت البحار بحرًا واحدًا. ورُوي أنّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستويةً، وهو معنى التسجير عند الحسن رحمه الله.[3] وقيل: إنّ مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت وذهبت. وقُرئ: "فُجِرَتْ" بالتخفيف مبنيًا للمفعول،[4] ومبنيًا للفاعل[5] أيضًا، بمعنى بغَت مِن "الفجور" نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن، ٢٠/٥٥].

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ أي: قُلب ترابُها وأُخرج موتاها، ونظيره "بَحْثَر" لفظًا ومعنى، وهما مركّبان مِن "البعث" و"البحث" مع "راء" ضُمّت إليهما.

---

١ س: انفطرت.

٢ في تفسير سورة التكوير، ١/٨١.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٦/٤. وانظر المرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٤٠/٢٤ (التكوير، ٦/٨١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الربيع بن خُثيم ومجاهد والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٩٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، لكن لا على أنّها تعلمه عند البعث؛ بل عند نشر الصُّحف لِما عرفتَ مِن أنّ المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعدِّدة حسب
[٢٧٨و] تعدُّد / كلمة ﴿إِذَا﴾، وإنّما كُرِّرت لتهويل ما في حيّزها مِن الدّواهي. والكلام فيه كالذي مرّ تفصيله في نظيره.

ومعنى ما قدّم وأخّر: ما أسلَف مِن عمل خير أو شرّ، وأخَّر مِن سُنّة حسنة أو سيّئة يُعمل بها بعده، قاله ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما.[1] وعن ابن عبّاس أيضًا: ما قدَّم مِن معصية وأخّر مِن طاعة، وهو قول قتادةَ.[2] وقيل: ما قدَّم مِن أمواله لنفسه وما أخَّر لورثته. وقيل: ما قدَّم مِن فَرْض وأخَّر مِن فرض. وقيل: أوّلُ عملِه وآخِرُه.[3] ومعنى عِلمها بهما عِلمُها التفصيلي حسبما ذُكر فيما مرّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: أيّ شيء خدَعك وجرّأك على عصيانه وقد علمتَ ما بين يديك مِن الدواهي التامّة والعراقيل الطّامة، وما سيكون حينئذ مِن مشاهدة أعمالك كلّها. والتعرّض لعنوان كَرَمه تعالى للإيذان بأنّه ليس ممّا يصلح أن يكون مدارًا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإنّ ربك كريم قد تفضّل عليك في الدنيا، وسيفعل مِثله في الآخرة، فإنّه قياس عقيم وتَمْنِيةٌ باطلة؛ بل هو ممّا يُوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتنابَ عن الكفر والعصيان، كأنّه قيل: ما حَملك
[٢٧٨ظ] على عصيان ربّك الموصوفِ بالصفات / الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه؟

---

[1] م – رضي الله عنهما.

[2] انظر المرويّ عنهم في جامع البيان للطبري، ١٧٧/٢٤-١٧٨.

[3] انظر هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ١٩٥/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقرِّرة للربوبيّة مبيِّنة للكرم منبِّهة على أنّ مَن قَدَر على ذلك بدءًا قَدَر عليه إعادةً. والتسوية جعلُ الأعضاء سليمةً سويّةً معدَّةً لمنافعها، وعَدْلُها عَدْل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت، أو صَرْفها عن خِلقة غير ملائمة لها. وقُرئ: "فَعَدَّلَكَ"[١] بالتشديد، أي: صيَّرك معتدِلًا متناسِبَ الخَلْق مِن غير تفاوت فيه.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ركّبك في أيّ صورة شاءها مِن الصور المختلفة، و﴿مَا﴾ مَزيدة، و﴿شَآءَ﴾ صفة لـ﴿صُورَةٍ﴾، أي: ركّبك في أيّ صورة شاءها واختارها لك مِن الصور العجيبة الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥/٤]، وإنّما لم تُعطف الجملة على ما قبلها لأنّها بيان لـ﴿عَدَلَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكَرَم الله تعالى وجعلِه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي مع كونه موجِبًا للشكر والطاعة. وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضراب عن جملة مقدَّرة ينساق إليها الكلام، كأنّه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجترئون على أعظمَ مِن ذلك، حيث تكذِّبون بالجزاء والبعث رأسًا، أو بدين الإسلام الذي هما مِن جملة أحكامه، فلا تُصدِّقون سؤالًا ولا جوابًا ولا ثوابًا ولا عقابًا. وقيل: كأنّه قيل: إنّكم لا تستقيمون على ما تُوجبه نِعَمي عليكم وإرشادي لكم، ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾... إلخ. وقال القفّال: ليس الأمر كما تقولون مِن أنّه لا بعث ولا نشور، ثمّ قيل: أنتم لا تتبيَّنون بهذا البيان؛ بل تكذّبون بيوم الدِّين.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقُّق ما يكذّبون به، أي: تكذِّبون بالجزاء والحالُ أنّ عليكم مِن قبلنا لحافظين لأعمالكم. ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لها.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

[٢] القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠٠/٢٠.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال قليلًا وكثيرًا ويضبِطونه نقيرًا وقِطميرًا لتُجازَوا بذلك. وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيمٌ لأمر / الجزاء وأنّه عند الله [٢٧٩و]
عزّ وجلّ مِن جلائل الأمور حيث يُستعمَل فيه هؤلاء الكرام.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب مِن الثواب والعقاب. وفي تنكير "النعيم" و"الجحيم" مِن التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمّا صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ مِن تهويلها، كأنّه قيل: ما حالهم فيها؟[١] فقيل: يُقاسُون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ طرفةَ عينٍ، فإنّ المراد دوام نفي الغَيبة لا نفيُ دوامِ الغَيبة لِما مرّ مرارًا مِن أنّ الجملة الاسميّة المنفيّة قد يراد بها استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار، باعتبار ما تُفيده مِن الدوام والثبات بعد النفي لا قبله. وقيل: معناه وما كانوا غائبين عنها.[٢] قيل: ذلك بالكلّيّة؛ بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم،[٣] حسبما قال[٤] عليه السلام: «القبرُ روضة مِن رياض الجنّة، أو حفرةٌ مِن حفر النيران».[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تفخيم لشأن يوم الدِّين الذي يكذِّبون، به إثر تفخيمٍ وتهويلٍ لأمره بعد تهويل ببيان أنّه خارج عن دائرة دراية الخلق، على أيّ صورة تَصوَّروه فهو فوقها، وكيفما تخيّلوه فهو أطَمّ مِن ذلك وأعظمُ، أي: وأيُّ شيء جعلك داريًا ما يوم الدين؟

---

[١] س - فيها.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٤.
[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٧/٣.
[٤] س ي + النبيّ.
[٥] سنن الترمذي، ٦٣٩/٤-٦٤٠ (٢٤٦٠)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٢٧٢/٨-٢٧٣ (٨٦١٣).

على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبرُ لـ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ لا بالعكس كما هو رأي سيبويهِ،[١] لِما مرّ مِن أنّ مدار الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريبَ في أنّ مناط إفادة الهَول والفخامة هنا هُوَ ﴿مَا﴾ لا ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: أيُّ شيء عجيب هو في الهَول والفظاعة؟ لِما مرّ غير مرّة أنّ كلمة ﴿مَا﴾ قد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعةً لطلب الحقيقة وشرح الاسم، يقال: ما زيد؟ فيقال في الجواب: "كاتبٌ" أو "طبيبٌ"، / وفي إظهار ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ في موقع الإضمار تأكيد لهَوله وفخامته. [٢٧٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ بيانٌ إجمالي لشأنِ يوم الدِّين إثرَ إبهامه وبيانِ خروجه عن علوم الخَلْق بطريق إنجاز الوعد، فإنّ نفي إدرائهم مُشعِر بالوعد الكريم بالإدراء. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كلّ ما في القرآن مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكلّ ما فيه مِن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طوي عنه.[٢]

و﴿يَوْمَ﴾ مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وحركتُه الفتح لإضافته إلى غير متمكّن،[٣] كأنّه قيل: هو يومَ لا تملك فيه نفس مِن النفوس لنفس مِن النفوس شيئًا مِن الأشياء... إلخ، أو منصوبٌ بإضمار "اذكُر"، كأنّه قيل: بعد تفخيم أمر يوم الدِّين وتشويقه صلّى الله عليه وسلّم إلى معرفته: اذكُر يومَ لا تملك نفس... إلخ، فإنّه يدريك ما هو. وقيل: بإضمار "يُدانون"،[٤] وليس بذاك؛ فإنّه عارٍ عن إفادة ما لم[٥] يُفده[٦] ما قبله، كما أنّ إبداله مِن ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ على قراءة الرفع[٧] كذلك؛ بل الحقّ حينئذٍ الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. والله تعالى أعلم.

---

١ انظر: كتاب سيبويه، ١/١٣٤.

٢ بلفظ قريب في تفسير القرطبي، ١٩/٢٤٩؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٠٣.

٣ وفي هامش م: قال الزجّاج: يجوز أن يكون في موضع رفع، إلّا أنّه بُنيَ على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لَا تَمْلِكُ﴾، وما أضيفَ إلى غير المتمكّن فقد يُبنى كما إذا أضيفَ إلى الماضي، وأمّا إذا أضيفَ إلى المستقبل فلا يبنى عند البصريّين ويبنى عند الكوفيّين. «منه». | انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٥/٢٩٦، وليس فيه تفصيل نسبة المذاهب إلى البصريّين والكوفيّين، وإنّما ذكره الواحدي تفصيلًا لكلام الزجّاج، ونقله عنه ابن عادل. انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٢٣/٣٠٢-٣٠٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٠٣-٢٠٤.

٤ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٨.

٥ س ي - لم.

٦ س ي: يفيده.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الانفطار كَتَب الله تعالى له بعدد كلّ قطرة مِن السماء حسنة وبعدد كلّ قَبْر حسنةً».[١]

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩ (الانفطار، ١/٨٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤/٤٣٣ (الانفطار، ١/٨٢)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٨. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٨٢

سُورَةُ الانفِطَارِ

مكية، تسعَ عشْرةَ آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿إذا السَّماءُ انفَطَرَتْ﴾: انشقّت، ٢ ـ ﴿وإذا الكَواكِبُ انتَثَرَتْ﴾: انقضّت وتساقطت، ٣ ـ ﴿وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ﴾: فُتح بعضها في بعض فصارت بحرًا واحدًا فاختلط العذب بالمِلح، ٤ ـ ﴿وإذا القُبُورُ بُعثِرَتْ﴾: قُلِب تُرابها وبُعث موتاها، وجواب «إذا» وما عُطف عليها: ٥ ـ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كُلُّ نفس وقتَ هذه المذكورات ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿ما قَدَّمَتْ﴾ من الأعمال ﴿و﴾ ما ﴿أَخَّرَتْ﴾ منها فلم تعمله.

٦ ـ ﴿يا أَيُّها الإنسانُ﴾ الكافر، ﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ حتّى عصَيتَه، ....

سُورَةُ الانفِطَارِ

قولُهُ: (تَسَاقَطَت) مُتفرِّقةً.

قولُهُ: (مِنَ الأَعمَالِ) والصَّدَقَة.

قولُهُ: (مِنهَا) من سنَّةٍ أو تَركةٍ، ويجوزُ أن يرادَ بالتَّأخيرِ: التَّضييعُ، وقيل: ما قدَّمَتْ من خيرٍ وأَخَّرَتْ من شرٍّ.

قولُهُ: (حتَّى عَصَيتَهُ) أي: أيُّ شيءٍ خدعكَ وجرَّأكَ على عصيانِهِ، قال جعفرٌ: ما الذي أقعدَكَ عن خدمةِ مولاكَ، وقالَ عمرُ[1]: لو قيلَ لي: ما غرَّكَ بي؟ لقلتُ: جهلي بكَ غرَّني لا غير.

---

(١) ذكر القولين السلمي في «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٧) وقول عمر ذكره من قول يحيى بن معاذ، وأما قول عمر فهو: لقلت: يا رب كرمك. وروى ابن أبي حاتم كما في «تفسيره ابن كثير» (٨/ ٣٤٢): أن عمر سمع رجلاً يقرأ: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ فقال عمر: الجهل.

٧ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ بعد أن لم تكن ﴿فَسَوَّاكَ﴾: جعلك مُستويَ الخِلقة سالم الأعضاء ﴿فعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد والتخفيف: جعلك مُعتدل الخَلق متناسب الأعضاء، ليست يد أو رجل أطولَ من الأُخرى، ٨ ـ ٩ ـ ﴿في أيِّ صُورةٍ ما﴾: زائدةٌ ﴿شاءَ رَكَّبَكَ؟ كَلاَّ﴾: ردعٌ عن الاغترار بكرم الله تعالى، ﴿بَل تُكَذِّبُونَ﴾ ـ أيْ كُفّارَ مكّةَ ـ ﴿بِالدِّينِ﴾: الجزاء على الأعمال، ١٠ ـ ﴿وإنَّ علَيكُم لَحافِظِينَ﴾ من الملائكة لأعمالكم ١١ ـ ﴿كِرامًا﴾ على الله ﴿كاتِبِينَ﴾ لها، ١٢ ـ ﴿يَعلَمُونَ ما تَفعَلُونَ﴾ جميعَه.

١٣ ـ ﴿إنَّ الأبرارَ﴾: المُؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾: جنّة، ١٤ ـ ﴿وإنَّ الفُجّارَ﴾: الكُفّار ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾: نارٍ مُحرقة، ١٥ ـ ﴿يَصلَونَها﴾: يدخلونها ويُقاسون حرَّها ﴿يَومَ الدِّينِ﴾الجزاء، ١٦ ـ ﴿وما هُم عَنها بِغائبِينَ﴾: بمُخرَجينَ. ١٧ ـ ١٨ ـ ﴿وما أدراكَ﴾: أعلَمَكَ: ﴿ما يَومُ الدِّينِ؟ ثُمَّ ما أدراكَ: ما يَومُ الدِّينِ﴾؟ تعظيمٌ لشأنه.

وتوضيحُهُ ما قالَ القاضِي[١]: وذِكرُ ﴿الكَرِيمِ﴾ للمُبالغَةِ في المنعِ عن الاغتِرارِ، فإنَّ محضَ الكرَمِ لا يقتَضِي إهمالَ الظَّالِمِ وتسويَةَ الموالي والمعادِي والمطيعِ والعاصِي، فكيفَ إذا انضَمَّ إليه صفَةُ القَهرِ والانتِقامِ والإشعارِ بما به يغرُّهُ الشَّيطانُ، فإنَّه يقولُ له: افعَلْ ما شئتَ، فربُّكَ كرِيمٌ لا يعذِّبُ أحَداً ولا يعاجِلُ بالعُقوبَةِ، والدَّلالَةِ على أنَّ كثرَةَ كرمِهِ تستدعي الجِدَّ في طاعتِهِ لا الانهماكَ في عصيانِهِ اغتِراراً بكرَمِه.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ) كوفيٌّ[٢].

قولُـهُ: (أي: كُفَّـارَ مَكَّـةَ) أي: ندائيَّةٌ أو تفسيريَّةٌ؛ أي: المخاطبونَ كفَّـارُ مكَّةَ، وقرأَ أبو جعفَرٍ من العشـرَةِ بالغَيبةِ[٣].

قولُهُ: (الجَزَاء) أو الإسلامِ.

قولُهُ: (نَارٍ مُحرِقَةٍ) قال جعفرٌ[٤]: النَّعيمُ: المعرفَةُ والمشاهدَةُ، والجحيمُ: هي النَّفسُ، وأنَّ لها نيراناً متَّقدَةً من الشَّهَواتِ والغَفَلاتِ، وقيل: النَّعيمُ: القناعَةُ، والجحيمُ: الطَّمعُ.

قولُهُ: (بمُخْرَجِينَ) وقيل معناهُ: وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك؛ إذ كانوا يباشِرونَ أسبابَها.

قولُهُ: (تَعظِيمٌ) وتعجيبٌ؛ أي: كُنهُ أمرِهِ بحيثُ لا تدرِكهُ درايَةُ دارٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٣) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٩٩).

(٤) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٨).

١٩ ـ ﴿يَومُ﴾ ـ بالرفع ـ أي: هو يومُ ﴿لا تَملِكُ نَفسٌ لِنَفسٍ شَيئًا﴾ من المنفعة، ﴿والأمرُ يَومَئذٍ لِلهِ﴾ لا أمر لغيره فيه، أي: لم يمكِّن أحدًا من التوسط فيه بخِلاف الدنيا.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ[1]، وحقُّهُ أن يقولَ: وبالنَّصبِ؛ لقراءَةِ الجمهورِ[2]، ومثلُ هذا اختصارٌ مخلٌّ كما في ذِكرِ الهمزاتِ وتكرارِها تطويلٌ مُملٌّ.

قولُهُ: (أي: هُو) يعني: أنَّه خبرٌ لمحذُوفٍ، وقيل: إنَّه بدلٌ من: ﴿يَومِ الدِّينِ﴾.

قولُهُ: (مِنَ المَنْفَعَةِ) تقريرٌ لشدَّةِ هولِهِ إجمالاً.

قولُهُ: (بخِلافِ الدُّنيَا) أي: في نظرِ العوامِّ، فإنَّهم إذا شاهَدوا الغيبَ تيقَّنوا أنَّ الأمرَ كلَّهُ للهِ، فأمَّا أهلُ المعرفةِ فمشاهدَتَهُم للأمرِ اليومَ كمشاهدَتِهم يومئذٍ لا يزيدُهُم مشاهَدَةُ الغَيبِ عياناً على مشاهدَتِهم له تصديقاً كعامِرِ بن عبدِ قيسٍ حيثُ قالَ: لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازدَدْتُ يقيناً، وكحارِثَة أخبَرَ بحضرَةِ النَّبيِّ ﷺ يقول: كأنِّي أنظُرُ[3]، كذا في تفسيرِ السُّلميِّ[4]، والله أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٢) أي: مدني وشامي وكوفي، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٧٤).

(٣) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه يوسف بن عطية متروك. «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٦٨).

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٤٢٥) عن زبيد مرسلاً.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٦٧) من حديث الحارث بن مالك رضي الله عنه.

(٤) انظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٣٧٩).

سورة الانفطار

وتسمَّى سورةَ «انفطرت»، وسورة «المنفطرة»، ولا خلاف في أنها مكيةٌ، ولا في أنها تسعَ عَشْرةَ آيةً. ومناسبتُها لِمَا قبلها معلومةٌ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ أي: انشقَّتْ لنزولِ الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] والكلامُ في ارتفاع السماء كما مرَّ في ارتفاع الشمس.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ أي: تساقطتْ متفرِّقةً، وهو استعارةٌ لإزالتها، حيث شبِّهتْ بجواهرَ قُطِعَ سِلْكُها، وهي مصرِّحةٌ أو مكنيةٌ.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ فُتحت وشقِّقتْ جوانبُها، فزال ما بينها من البرزخ، واختلط العَذْبُ بالأُجَاج، وصارت بحراً واحداً. وروي أنَّ الأرض تَنْشِفُ الماء[1] بعد امتلاء البحار فتصير مستويةً، أي: في أنْ لا ماءَ، وأريدَ أنَّ البحار تصير واحدةً أوَّلاً، ثم تَنْشَفُ الأرضُ جميعاً فتصير بلا ماء. ويحتمل أن يراد بالاستواء بعد النضوب عدمُ بقاء مغايضِ الماء؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا﴾ [طه: ١٠٧].

وقرأ مجاهدٌ والربيعُ بنُ خثيم والزعفرانيُّ والثوري: «فُجِرتْ» بالتخفيف مبنيًا

---

(١) أي: تشربه، وأرض نَشِفَة، أي: تَنْشف الماء. ونَشِف الثوب العرق ـ كسَمِعَ ونَصَرَ ـ: شربه. القاموس (نشف).

للمفعول[1]. وعن مجاهد أيضاً: «فَجَرَتْ» به[2] مبنيًّا للفاعل، بمعنى: بَغَتْ[3] لزوالِ البرزخ، من الفجور، نظر إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] لأنَّ البغي والفجور أخوان.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ قُلِبَ ترابها الذي حُثِيَ على موتاها، وأُزيلَ وأُخرج مَن دُفِنَ فيها، على ما فسَّر به غيرُ واحدٍ. وأصل البعثرة على ما قيل: تبديدُ التراب ونحوه، وهو إنما يكون لإخراج شيءٍ تحته، فقد يُذكر ويراد معناه ولازمُه معاً، وعليه ما سمعتَ، وقد يُتَجوَّزُ به عن البعث والإخراج كما في «العاديات» حيث أسند فيها لما في القبور دونها كما هنا. وزعم بعضٌ أنه مشتركٌ بين النبش والإخراج.

وذهب بعضُ الأئمة كالزمخشريِّ والسهيليِّ إلى أنه مركَّبٌ من كلمتين اختصاراً، ويُسمَّى ذلك نحتاً، وأصلُ بُعْثِرَ: بُعِثَ وأُثِيرَ[4]، ونظيره: بَسْمَلَ وحَمْدَلَ وحَوْقَلَ ودَمْعزَ، أي: قال بسم الله، والحمد تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى، وأدام تعالى عزَّه، إلى غير ذلك من النظائر، وهي كثيرةٌ في لغة العرب، وعليه يكون معناه النبشُ والإخراج معاً.

واعترضه أبو حيان بأنَّ الراء ليست من أحرف الزيادة[5]، وهو توهُّمٌ منه فإنه فرَّق بين التركيب والنحتِ من كلمتين، والزيادةِ على بعض الحروف الأصول من كلمةٍ واحدة، كما فصَّل في «المُزْهِر»[6] نقلاً عن أئمة اللغة، نعم الأصلُ عدمُ التركيب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٣٦.

(٢) أي: بالتخفيف، وهي في القراءات الشاذة ص١٧٠، والبحر ٨/ ٤٣٦.

(٣) في الأصل و(م): نبعت، وهو تصحيف، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٢٧، والبحر ٨/ ٤٣٦، وتفسير أبي السعود ٩/ ١٢٠.

(٤) ينظر الكشاف ٤/ ٢٢٧، والكلام من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٢.

(٥) البحر ٨/ ٤٣٦.

(٦) في الأصل و(م) الزهر، وهو تصحيف، والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٢، وينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١/ ٤٨٢ و٢/ ٦ وما بعدها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ جوابُ «إذا» لكنْ لا على أنها تعلمه عند البعث بل عند نَشْرِ الصحف، لِمَا عرفْتَ أنَّ المراد بها زمانٌ واحدٌ مبدؤه قبيل النفخة الأولى، أو هي، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنةٌ متعدِّدةٌ بحسب كلمة «إذا»، وإنما كرِّرتْ لتهويل ما في حيِّزها من الدواهي، والكلامُ فيه كالذي مرَّ في نظيره.

ومعنى ما قدَّم وأخَّر: ما أَسْلَفَ من عملِ خيرٍ أو شرٍّ، وأخَّر من سنَّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ يُعمل بها بعده؛ قاله ابن عباس وابن مسعود.

وعن ابن عباس أيضاً: ما قدَّم من معصيةٍ وأخَّر من طاعةٍ. وهو قولُ قتادةَ.

وقيل: ما عمل ما كلِّف به وما لم يعملْ منه.

وقيل: ما قدَّم من أمواله لنفسه، وما أخَّر لورثته.

وقيل: أول عمله وآخره.

ومعنى عِلمِها بهما عِلْمُها التفصيليُّ حَسْبَما ذكر فيما قدَّم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ أي: أيُّ شيءٍ خَدعك وجرَّأك على عصيانه تعالى وارتكابِ ما لا يليقُ بشأنه عزَّ شأنُه وقد علمتَ ما بين يديك وما سيظهرُ من أعمالك عليك؟

والتعرُّضُ لعنوان كرمه تعالى دون قَهْرِه سبحانه من صفات الجلال المانعةِ ملاحظتُها عن الاغترار؛ للإيذان بأنه ليس مما يَصْلُحُ أن يكون مداراً لاغتراره حَسْبَما يُغويه الشيطانُ ويقول له: افعل ما شئتَ فإنَّ ربَّك كريمٌ قد تفضَّل عليك في الدنيا وسيفعل مثلَه في الآخرة، أو يقول له نحوَ ذلك ممَّا مبناه الكرمُ، كقول بعض شياطين الإنس:

تَكَثَّرْ ما استَطَعْتَ من الخطايا ... سَتَلْقَى في غدٍ ربًّا غفوراً
تَعَضُّ ندامةً كفَّيْكَ ممَّا ... تركتَ مخافةَ الذنبِ السرورا[1]

---

(١) البيتان لأبي نواس، وهما في ديوانه ص٣٠٧ باختلاف يسير.

فإنه قياسٌ عقيمٌ وتمنيةٌ باطلةٌ، بل هو مما يوجب المبالغةَ في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتنابِ عن الكفر والعصيان دون العكس، ولذا قال بعض العارفين: لو لم أَخَفِ الله تعالى لم أَعْصِه[١]. فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربِّك الموصوفِ بما يَزْجُر عنه ويَدْعُو إلى خلافه.

وقيل: إنَّ هذا تلقينٌ للحجَّة، وهو من الكرم أيضاً، فإنه إذا قيل له: ما غرَّك.. إلخ، يتفطَّنُ للجواب الذي لقِّنه ويقول: كرمُه، كما قيل: يُعرف حُسْنُ الخُلق والإحسان بقلَّة الآداب في الغلمان. ولم يرتَضِ ذلك الزمخشريُّ[٢]، وكأن الاغترار بذلك في النظر الجليل، وإلَّا فهو في النظر الدقيق كما سمعتَ.

وعن الفضيل أنه قال: غرَّه سترُه تعالى المَرْخيُّ. وقال محمد بن السماك:

يا كاتمَ الذَّنْبِ أمَا تستحي   واللهُ في الخلوة رائيكا
غرَّك من ربِّك إمهالُه   وسَترُه طولَ مَساوِيْكا[٣]

وقال بعضهم:

يقولُ مولاي أمَا تستحي   ممَّا أرى من سوء أفعالك
فقلتُ يا مولاي رفقاً فقد   جرَّأني كثرةُ أفضالك[٤]

وقال قتادة: غرَّه عدوُّه المسلَّطُ عليه.

وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ الآية فقال: الجهل[٥]. وقاله عمر ﷺ، وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] والفرقُ بين هذا وبين ما ذكروا لا يَخْفَى على ذي علم.

---

(١) أراد أنه إنما يطيع الله حبًّا له لا خوف عقابه، فلو لم يكن عقاب يخافه ما عصى الله، ففي الكلام محذوف، والتقدير: لو لم أخف الله لم أعصه فكيف وقد خفته. وينظر ما سلف ١/ ٤٩٢.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٢٨.

(٣) الوسيط ٤/ ٤٣٥، وتفسير القرطبي ٢٢/ ١٢٢-١٢٣، وفيهما: ثانيكا، بدل: رائيكا.

(٤) البيتان لعبد الكريم القشيري، وهما في تفسيره لطائف الإشارات ٣/ ٦٩٧.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٧١، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٣٥ من طريق صالح بن مسمار عن النبي ﷺ مرسلاً.

واختلف في الإنسان المنادَى، فقيل: الكافر، بل عن عكرمة أنه أبيّ بنُ خلف.

وقيل: الأعمُّ الشامل للعصاة. وهو الوجهُ؛ لعموم اللفظ، ولوقوعه بين المجمل ومفصَّلِه، أعني «علمتْ نفسٌ» و«إنَّ الأبرار» و«إنَّ الفجَّار» وأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾﴾ ففي «الكشف»: إما أن يكون ترشيحاً لقوَّة اغترارهم بإيهامِ أنهم أسوأُ حالاً من المكذِّبين تغليظاً، وإما لصحة خطاب الكلِّ بما وُجد فيما بينهم.

وقرأ ابن جبير والأعمش: «ما أغرَّك» بهمزةٍ[١]، فاحتَمَلَ أن يكون تعجُّباً، وأن تكون «ما» استفهاميةً كما في قراءة الجمهور، و«أغرك» بمعنى: أدخلك في الغِرَّة.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ صفةٌ ثانيةٌ مقرِّرةٌ للربوبية مبيِّنةٌ للكرم، مُوميةٌ إلى صحة ما كذِّب من البعث والجزاء، موطِّئةٌ لِمَا بعدُ حيث نبَّهت على أنَّ مَن قدرَ على ذلك بدءاً أَقْدَرُ عليه إعادةً.

والتسوية: جَعْلُ الأعضاء سَوِيَّةً سليمةً معدَّة لمنافعها، وهي في الأصل جَعْلُ الأشياء على سواءٍ، فتكون على وَفْقِ الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتمُّ به.

وعَدْلُها: عَدْلُ بعضها ببعضٍ بحيث اعتدلتْ، من عَدَلَ فلاناً بفلان: إذا ساوى بينهما. أو: صَرْفُها عن خلقةٍ غيرِ ملائمة لها، مِن عَدَلَ بمعنى صَرَفَ. وذهب إلى الأول الفارسيُّ وإلى الثاني الفرَّاء[٢].

وقرأ غير واحد مِن السبعة: «عدَّلك» بالتشديد[٣]، أي: صيَّرك معتدلاً متناسبَ الخَلْقِ من غير تفاوتٍ فيه. ونقل القفَّال عن بعضهم أن عَدَل وعدَّل بمعنًى واحدٍ.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ أي: ركَّبك ووضعك في أيِّ صورة اقتضتها مشيئتُه تعالى وحكمتُه جل وعلا من الصور المختلفة في الطول والقصر ومراتب

(١) الكشاف ٤/ ٢٢٨، والبحر ٨/ ٤٣٦.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ٣٨٢، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٤.

(٣) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/ ٣٩٩، وقرأ الكوفيون بالتخفيف.

الحسن ونحوها، فالجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «ركَّبك» و«أيّ» للصفة، مثلُها في قوله:

أرأيــتَ أيَّ ســوالــفٍ وخُــدود بَـرزَتْ لـنـا بـيـن الـلِّـوَى وزَرُودِ[1]

ولمَّا أريدَ التعميمُ لم يُذكَرْ موصوفُها[2]، وجملة «شاء» صفةٌ لها، والعائد محذوفٌ، و«ما» مزيدةٌ. وإنما لم تُعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيانٌ لـ «عدلك»[3]. وجوِّز أن يكون الجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: ركَّبك كائناً في أيِّ صورةٍ شاءها.

وقيل: «أيّ» موصولة، صلتُها جملة «شاءها»، كأنه قيل: ركَّبك في الصورة التي شاءها. وفيه أنه صرَّح أبو عليٍّ في «التذكرة» بأنَّ «أياً» الموصولةَ لا تضاف إلى نكرة، وقال ابن مالك في «الألفية»: واخصُصَنْ بالمعرفة موصولةً أيًّا، وفي «شرحها» للسيوطي: مع اشتراطِ ما سبق ـ يعني كونَ المعرفة غيرَ مفردةٍ ـ فلا تُضِفْها إلى نكرةٍ خلافاً لابن عصفور.

ويجوز أن تُجعل «أيّ» شرطيةً والماضي في جوابها في معنى المستقبل إذا نظر إلى تعلُّق المشيئة وترتُّب التركيب عليه، فجيء بصورة[4] الماضي نظراً إلى المشيئة، وأداةِ الشرط نظراً إلى التعلُّق[5] والترتُّب.

ويجوز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بـ «عدلك»، وحينئذ يتعيَّن في «أيّ» الصفة، كأنه قيل: فعدلك في صورةٍ أيِّ صورةٍ، أي: في صورةٍ عجيبةٍ، ثم حذف الموصوف زيادةً للتفخيم والتعجيب، و«أيّ» هذه منقولةٌ من الاستفهامية، لكنها لانسلاخِ معناها عنها بالكلِّية عَمِلَ فيها ما قبلها، ويكون «ما شاء ركَّبك» كلاماً مستأنفاً،

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٣٨٤ برواية: عنَّت لنا بين اللوى فزرود. واللوى وزرود موضعين.

(٢) وأصله: في صورةٍ أيِّ صورةٍ، كما تقول: مررت برجلٍ أيِّ رجل. حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٣.

(٣) والتقدير: فعَدَلَك: ركَّبك في صورةٍ أيِّ صورةٍ من الصور العجيبة الحسنة التي شاءها. الدر المصون ٩/ ٧١١.

(٤) بعدها في (م): إلى، وهو خطأ.

(٥) في (م): المتعلق، وهو تصحيف.

و«ما» إما موصولةٌ أو موصوفةٌ مبتدأ أو مفعولاً مطلقاً لـ «ركَّبك»، أي: ما شاء من التركيب ركَّبك فيه، أو: تركيباً شاء ركَّبك.

وجوِّز أن تكون شرطيةً، و«شاء» فعلُ الشرط، و«ركَّبك» جزاؤه، أي: إنْ شاء تركيبك في أيِّ صورةٍ غيرِ هذه الصورة ركَّبك فيها، والجملةُ الشرطية في موضع الصفة لـ «صورة» والعائد محذوفٌ، ولم يجوِّزوا على هذا الوجه تعلُّقَ الظرف بـ «ركَّبك» لأنَّ معمول ما في حيِّز الشرط لا يجوز تقديمه عليه.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عن الاغترار بكرم الله تعالى وجَعْلِه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي، مع كونه موجباً للشكر والطاعة.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩﴾ إضرابٌ عن جملةٍ مقدَّرةٍ ينساق إليها الكلام، كأنه قيل بعد الرَّدع بطريقِ الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجترؤون على أعظمَ منه، حيث تكذِّبون بالجزاء والبعث رأساً أو بدين الإسلام اللَّذَيْنِ هما من جملة أحكامه، فلا تصدِّقون سؤالاً ولا جواباً ولا ثواباً ولا عقاباً، وفيه ترقٍّ من الأهون إلى الأغلظ.

وعن الراغب(١): «بل» هنا لتصحيح الثاني وإبطالِ الأول، كأنه قيل: ليس هنا مقتضٍ لغرورهم ولكنَّ تكذيبهم حَمَلَهم على ما ارتكبوه.

وقيل: تقدير الكلام: إنكم لا تستقيمون على ما تُوْجِبُه نِعَمي عليكم وإرشادي لكم، بل تكذِّبون.. إلخ.

وقيل: إن «كلَّا» ردعٌ عمَّا دلَّ عليه هذه الجملة من نفيهم البعث، و«بل» إضرابٌ عن مقدَّرٍ، كأنه قيل: ليس الأمر كما تزعمون من نفي البعث والنشور، ثم قيل: لا تتبيَّنون بهذا البيان بل تكذِّبون.. إلخ.

وأدغم خارجة عن نافع «ركَّبك كلَّا» كأبي عمرو في إدغامه الكبير(٢).

وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبةُ وأبو بشر: «يكذِّبون» بياء الغيبة(٣).

---

(١) في مفرداته (بل)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٣٣.

(٢) البحر ٨/ ٤٣٧، وينظر مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير في التيسير ص٢٠.

(٣) النشر ٢/ ٣٩٩ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٣٧.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ حالٌ من فاعل «تكذِّبون» مفيدةٌ لبطلان تكذيبهم وتحقيقِ ما يكذِّبون به من الجزاء على الوجهين في «الدِّين» أي: تكذِّبون بالجزاء والحالُ إنَّ عليكم مِن قِبَلِنا لحافظين لأعمالكم ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ لها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ من الأفعال قليلاً كان أو كثيراً، ويضبطونه نقيراً أو قطميراً، وليس ذلك [إلا][(١)] للجزاء وإقامةِ الحجة، وإلا لكان عبثاً ينزَّه عنه الحكيم العليم.

وقيل: جيء بهذه الحال استبعاداً للتكذيب معها. وليس بذاك.

وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيمٌ لأمر الجزاء، وأنه عند الله عزَّ وجلَّ من جلائل الأمور، حيث استَعْمَلَ سبحانه فيه هؤلاء الكرامَ لديه تعالى.

ثم إنَّ هؤلاء الحافظين غيرُ المعقِّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] فمع الإنسان عدَّةُ ملائكةٍ؛ روي عن عثمان أنه سأل النبيَّ ﷺ: كم من ملك على الإنسان؟ فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين مَلَكاً[(٢)]. قاله المهدويُّ في «الفيصل»[(٣)].

وقيل: إنَّ كلَّ آدميٍّ يُوكل به من حين وقوعه نطفةً في الرَّحِم إلى موته أربعُ مئة ملكٍ، ومَن يكتب الأعمال ملكان: كاتبُ الحسنات وهو في المشهور على العاتق الأيمن، وكاتبُ ما سواها وهو على العاتق الأيسر، والأول أمينٌ على الثاني فلا يمكِّنُه من كتابة السيئة إلا بعد مضيِّ ستِّ ساعاتٍ من غير مكفِّرٍ لها. ويكتبان كلَّ شيءٍ حتى الاعتقادَ والعزمَ والتقريرَ، وحتى الأنين في المرض، وكذا يكتبان حسنات الصبيِّ على الصحيح.

ويفارقان المكلَّف عند الجماع، ولا يدخلان مع العبد الخلاء، وأخرج البزَّار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى ينهاكم عن التعرِّي،

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٣٣٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعله التفصيل، وهو تفسير المهدوي المسمى: التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، وينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٨) من سورة ﴿قٓ﴾.

فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم، الكرامِ الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حاجات: الغائط والجنابة والغُسْل»[1] ولا يمنع ذلك من كَتْبِهما ما يَصْدُر عنه.

ويجعل الله تعالى لهما أمارةً على الاعتقاد القلبيِّ ونحوِه. ويَلْزَمان العبد إلى مماته، فيقومان على قبره يسبِّحان ويهلِّلان ويكبِّران، ويُكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة إن كان مؤمناً، ويلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً.

واستظهر بعضهم أنهما اثنان بالشخص، وقيل: بالنوع، وقيل: كاتب الحسنات يتغيَّر دون كاتب السيئات. ونصُّوا على أنَّ المجنون لا حَفَظَةَ عليه. وورد في بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ بعض الحسنات ما يكتبها غير هذين الملكين.

والظواهر تدلُّ على أنَّ الكَتْبَ حقيقيٌّ، وعِلْمُ الآلةِ وما يُكتب فيه مفوَّضٌ إلى الله عز وجل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ نتيجة الحفظ والكَتْبِ من الثواب والعقاب، وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمَّا صفةٌ للجحيم، أوحالٌ من ضمير «الفجَّار» في الخبر، أو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من تهويلها، كأنه قيل: ما حالُهم فيها؟ فقيل: يقاسُون حرَّها.

وقرأ ابن مقسم: «يُصَلَّونها» مشدَّداً مبنيًّا للمفعول[2].

﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ يومَ الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به استقلالاً أو في ضِمْن تكذيبهم بالإسلام.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ طرفةَ عينٍ، فإنَّ المراد استمرارُ النفي لا نفيُ

(١) كشف الأستار (٣١٧).
(٢) البحر ٨/ ٤٣٧.

الاستمرار، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: ٣٧] في الدلالة على سرمدية العذاب، وأنهم لا يزالون محسِّين بالنار.

وقيل: معناه: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلِّية، بل كانوا يجدون سمومَها في قبورهم حَسْبَما قال النبيُّ ﷺ: «القبر روضةٌ من رياض الجنة أو حفرةٌ من حفر النار»(١) على أنَّ «غائبين» من حكاية الحال الماضية.

والجملةُ، قيل: على الوجهين في موضع الحال، لكنها على الأول حالٌ مقدَّرةٌ، وعلى الثاني من باب ﴿جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء: ٩٠].

وقيل: إنها على الأول حاليةٌ دون الثاني؛ لانفصال ما بين صُلِيِّ النار وعذابِ القبر بالبعث وما في موقف الحساب، بل هي عليه معطوفةٌ على ما قبلها، ويُحتَمَلُ اسمُ الفاعل فيها ـ أعني «غائبين» ـ على الحال، أي: وما هم عنها بغائبين الآن، ليغايِرَ المعطوفَ عليه الذي أريد به الاستقبال، والكلام على ما عُرِفَ في إخباره تعالى من التعبير عن المستقبل بغيره لتحقُّقه، فلا يَرِدُ أنَّ بعض الفجَّار في زمرة الأحياء بعدُ، وبعضَهم لم يُخلق كذلك، وعذابُ القبر بعد الموت، فكيف يُحْمَل «غائبين» على الحال؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ تفخيمٌ لشأن يوم الدين الذي يكذِّبون به إثر تفخيمٍ، وتعجيبٌ منه بعد تعجيبٍ، والخطابُ فيه عامٌّ، والمراد أن كنهَ أمره بحيث [لا] تدركه درايةُ دارٍ(٢).

وقيل: الخطابُ لسيد المخاطبين ﷺ. وقيل: للكافر.

والإظهارُ في موضع الإضمار تأكيدٌ لهول يوم الدين وفخامته. وقد تقدَّم الكلام في تحقيق كون الاستفهام في مثل ذلك مبتدأً أو خبراً مقدَّماً(٣)، فلا تغفل.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٦٠) عن أبي سعيد الخدري ﵁، وقال: حسن غريب. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٦٠٨) من طريق آخر عن أبي هريرة. وضعَّف سندهما العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ١١٨.

(٢) في الأصل و(م): داري، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٢٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٣٣١، وما بين حاصرتين منهما.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة المرسلات.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ بيانٌ إجماليٌّ لشأن يوم الدين إثر إبهامه وإفادةِ خروجه عن دائرة الدراية، قيل: بطريق إنجاز الوعد؛ فإنَّ نفي الإدراء مشعرٌ بالوعد الكريم بالإدراء، على ما روي عن ابن عباس من أنه قال: كلُّ ما في القرآن من قوله تعالى: «ما أدراك» فقد أدراه، وكلُّ ما فيه من قوله عز وجل: «ما يدريك» فقد طوي عنه(١).

و«يوم» منصوبٌ بإضمارِ «اذكر»، كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتَشْويقِه ﷺ إلى معرفته: اذكر يومَ لا تملك نفسٌ من النفوس لنفسٍ من النفوس مطلقاً ـ لا للكافرة فقط كما روي عن مقاتل ـ شيئاً من الأشياء.. إلخ، فإنه يُدْريك ما هو.

أو مبنيٌّ على الفتح محلُّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ على رأي مَن يرى جواز بناء الظرف إذا أضيف إلى غير متمكِّنٍ وهم الكوفيون، أي: هو يومَ لا تملك.. إلخ.

وقيل: هو نصبٌ على الظرفية بإضمار «يدانون»، أو «يشتدُّ الهول»، أو نحوِه مما يدلُّ عليه السياق. أو هو مبنيٌّ على الفتح محلُّه الرفع على أنه بدلٌ من «يوم الدين». وكلاهما ليسا بذاك لخلوِّهما عن إفادة ما أفاده ما قبلُ.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو: «يومُ» بالرفع بلا تنوينٍ(٢) على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هو يومُ، لا بدلٌ؛ لمَا سمعتَ آنفاً.

وقرأ محبوبٌ عن أبي عمرو: «يومٌ» بالرفع والتنوين(٣)، فجملةُ «لا تملك» إلخ في موضع الصفة له والعائدُ محذوفٌ، أي: فيه.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢/١٢٧، وتفسير أبي السعود ٩/١٢٣، وهو مروي عن سفيان بن عيينة كما في صحيح البخاري قبل الحديث رقم (٢٠١٤) تعليقاً، وعن يحيى بن سلّام كما في النكت والعيون ٦/٧٦.

(٢) التيسير ص٢٢٠، والنشر ٢/٣٩٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، وهي قراءة يعقوب من العشرة، والكلام من البحر ٨/٤٣٧.

(٣) البحر ٨/٤٣٧، وهو أيضاً مرفوع على تقدير: هو يومٌ كما ذكر أبو حيان.

و«الأمر» كما قال في «الكشف»: واحدُ الأوامر؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فإن الأمر من شأن الملك المطاع، واللام للاختصاص، أي: الأمر له تعالى لا لغيره سبحانه، لا شركةً ولا استقلالاً، أي: إنَّ التصرُّف جميعَه في قبضة قدرته عز وجل لا غير، وفيه(١) تحقيقُ قوله تعالى: (لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا) لدلالته على أنَّ الكلَّ مَسُوسُون مطيعون مشتغلون بحال أنفسهم، مقهورون بعبوديتهم لسطوات الربوبية.

وقيل: واحد الأمور، أعني الشأن. وليس بذاك، وقول قتادة فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن المنذر: أي: ليس ثَمَّ أحدٌ يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً غير ربِّ العالمين(٢)، تفسيرٌ لحاصل المعنى، لا إيثارٌ لذلك، هذا وقولُه وحده ليس بحجةٍ يترك له الظاهر، والمنازعةُ في الظهور مكابرةٌ.

وأيَّاما كان فلا دلالةَ في الآية على نفي الشفاعة يومَ القيامة كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): وفي، وهو تصحيف.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢٣.